الفصل الخامس

الماضي الحاضر

ينتابنا الخوف، ويعترينا الخجل، ونعاني من الألم.. نتساءل عن سبب فظاعة الحياة.. ولكن، ألا نتساوى في الذنب أنتَ وأنا؟ .. لم تمر الإنسانية بزمن أثقل من زماننا الحاضر.. ولكننا رغم ذلك،.. لم يصل بنا الأمر إلى قتل إنسانيتنا التي في أعماقنا.

فاسيلي غروسمان، السيدة العذراء

obeikandl.com

obeikandl.com

المنهج الأخلاقي السليم

كيف لنا أن نستخدم الماضي في هذا الزمن الذي نحيا فيه؟ سأتوقف هنا عند بعض الأمثلة المستوحاة بشكل اعتباطي من تاريخ فرنسا قريب العهد؛ أمثلة قد تساعدنا في التقاط أشكال ووظائف استعادة ذكريات الماضي. ولنبدأ بتلك التي تضع هذا الماضي في خدمة "ما هو صحيح على الصعيد الأخلاقي".

الكل اليوم على اطلاع بالـ "المنهج السياسي السليم"، هذا التيار التقليدي الذي يزدهر في الحرم الأمريكي، والذي يُعَرِّف كل فرد رمز السلوك الواجب عليه اتباعه من أجل بلوغ النجاح على الصعيد المهني. تبقى التعابير هي الجديدة حتماً؛ فالـ "المنهج السياسي السليم " يخفي خلفه قصة طويلة. فمن أجل البقاء في فرنسا غداة الحرب العالمية الثانية، والاكتفاء بالماضي الحديث العهد، توجّب على "المنهج السياسي السليم" إشغال المناصب المناهضة للفاشية بإصرار. قرر الفرنسيون، وبشكل خاص كل من كان ناطقاً بلسانهم في الوسط الفكري، الاحتماء بالمثل الأعلى المناهض للفاشية، رغم اندثار الفاشية بعد الحرب، وذلك بسبب إحساسهم بتأنيب الضمير الناتج عن موقفهم غير المشرّف في أثناء الحرب والذي لم يخفيه وجود الجنرال "ديغول" في لندن ولا حتى أعمال المقاومة داخل البلد. وهذا ما دعّم في تلك الحقبة من نفوذ الحزب الشيوعي وحزب اليسار بمجمله. لقد ندرت الأصوات – غير المعترف بها على الصعيد السياسي- التي تجرأت ونددت بالشمولية، مهما بلغ مستوى التعتيم البلاغي من تَقَدّم. لقد لاحظ "دافيد روسيه" الذي ينتمي لتلك العقول غير التقليدية، لاحظ أن "التقدمية" المعتدلة ليست سوى (القناة المستعدة لابتلاع النتاج الأدبي التقليدي غير الأصيل بأكمله، شريطة أن تلصق عليه عبارة "اليسار"). ولمَ هذا التصرّف؟ لأن الحقيقة غالباً ما تكون مربكة، وعندما يُفرض علينا الخيار، فإن غالبيتنا يفضّلون الشعور بالراحة على بلوغ الحقيقة. "بيد أن التصرّف المتّبع في الغرب يكمن في التنديد بالبورجوازية وجرائمها، وتقديم التبريرات والأعذار لأخطاء ستالين وخلفائه[1]".

وتمضي سنوات المجد الثلاثون (١٩٤٥- ١٩٧٥) التي شهدت الازدهار الاقتصادي، والجمود الفكري، فانهار أساس "المنهج السياسي السليم" وضعف معه هذا المنهج. وحلّ مكانه في السنوات الأخيرة أسلوب خطابي جديد، تميّز بدلالات خلقية. ويستحق هذا الأمر الوقوف عنده، إذ إن "الأخلاق" لا حصة لها على كل حال، وترتفع الأصوات الغاضبة -وهي نفس الأصوات على الأغلب - في كل مرة يستشعر أصحابها "برائحة الرقابة" تقترب منهم، وخاصة فيما يتعلّق بالأمور الجنسية. ومع ذلك يختلف الوضع حال اقترابنا من المركز الحسّاس، الذي له صلة بالماضي القريب العهد، والذي نصوره على أنه تجسيد للشر بلا منازع. فكل من له علاقة أو شارك في أعمال الشر المطلق أُدين ووُصمت أفعاله بالعار في الساحات العامة.

كيف يتجسّد الشر في المنهج الأخلاقي السليم؟ لن يأتي الجواب تلقائياً، حيث إن المضمون الذي يرتبط بشكل آلي بمفهومَيْ الخير والشر لا يبقى ثابتاً، بل إنه يتبدّل مع الزمن. لقد كان إثبات المضمون خلال قرون طويلة في أوروبا من امتياز الكنيسة. ومع أن السلطة الزمنية تنفصل عن السلطة الروحية، إلاّ أن الدولة تبنّت القيم التي حددتها الكنيسة. ومع نهاية القرن التاسع عشر أعلنت الدولة اعتمادها العلمانية كمنهج لها، أي أنها تلتزم موقف الحياد تجاه المذاهب الفكرية المتنافسة - مع إنها من الناحية التطبيقية ليست كذلك تماماً. لقد تاق كل من الفنانين والمثقفين لإشغال مركز الكهنة إنها قصة "تبجيل المؤلّف" التي ذكرها "بينيشو **Bénichou**"[2]، ولكن لم يرغب أحد بمنحهم هذه الدرجة، وبقي مكان الكهنة شاغراً، مما أدّى إلى إحداث فراغٍ.

لم يحاول أحد من ممثلي الدولة تغطيته، إنما جاءت المحاولة من ممثلي القوى المختلفة التي تعمل في صميم المجتمع المدني. فكانوا يقترحون الأيقونات لتبجيلها أو لتعظيمها، و يقترحون أعداءً لمقتهم أو احتقارهم. لا يمكن أن نتصوّر أبداً رفض مجتمع ما، التخلّي عن الأخلاق بين ليلة وضحاها؛ ولكن وبكل بساطة لم تكن شرعية شاغلي المركز تأتيهم من الخارج، لذا كان عليهم كسبها يوماً بيوم، على حساب مرشحين آخرين للمركز نفسه. فارتسمت ملامح دور جديد جاء من الفراغ، إنه دور

المُصلِح الأخلاقي. أراد هذا المصلح الاستحواذ على مركز الكهنة، فكان لزاماً عليه في كل يوم إقناع الجمهور بالاستماع إليه، في حين لم يكن الكهنة مضطرين للقيام بهذا العمل.

كيف لنا أن نتعرّف على المصلِح الأخلاقي؟ إني أعني بهذا التعبير، ذلك الإنسان الذي يجني الفخر من جراء تعريفه، بشكل علني، لمظاهر الخير والشر. كونك مصلحاً أخلاقياً لا يعني البتة أنك تتمتّع بالأخلاق الحميدة. فالفرد الذي يتمتع بالخلق يقوم بإخضاع حياته الخاصة إلى معايير الخير والشر، بغض النظر عن إشباع رغباته أو ملذاته. أما المصلح الأخلاقي، فهو يسعى لإخضاع حياة من يحيطون به لتلك المعايير، ويستفيد من ذلك بأن يجد نفسه في الجانب السليم من الحاجز الذي يفصل بين الخير والشر. إنه بهذه الخطوة يفرض وجوده ويعرّف بقيمته. كأن يجد متعة في داخله بتفوقه على الآخرين بتسليمه المرأة الزانية إلى الشعب لتتم معاقبتها من قبله. فالمصلح الأخلاقي يشبه في هذا ما نسميه أحياناً المنافق، عندما نشير إلى خبثه، أو تمسّكه بالشكليات، أو نزعته لتقييم مَنْ حوله بقسوة. فما يدل على المصلح الأخلاقي ليس مضمون قناعاته إنما الخطة التي يتبعها في تصرفاته. فضميره مرتاح، وأعماله تنشأ عن مبررات أخلاقية. فإذا استدعى الذكرى، لا سيّما ذكرى الشر والألم، يكون ذلك بهدف تقديم الدروس والعبر لمعاصريه.

يمكننا تصوير الخير والشر بعبارات عامة ومجردة، ولكننا قد نصل إلى درجة الإقناع إذا أوردنا ذلك ضمن روايات لوقائع حقيقية، أي باستدعائنا للماضي. فعن أي جزء من الماضي سنتحدّث هنا؟ ما دامت مشاريع الشمولية تتنافس أمامنا بصورة الديمقراطية الصادقة، ليس هناك أي مجال للتوافق. لم تكن مؤشرات الأخلاق بين العقل الشمولي والعقل الديمقراطي في المدة التي سادت ما بين الحربين العالميتين، متطابقة. حتى بعد انهيار الدول الفاشية، لم يتوقف القتال، لقد تابع المذهب الخيالي الشيوعي محاولاته في إغواء شرائح واسعة من الشعب، وشهد الربع الأخير من القرن هدوءاً نسبياً في الصراعات، وأخذت المبادئ التي تقوم عليها الديمقراطية تغزو العالم بشكلٍ واسع. إلا أننا نستشفّ خلف هذا الانسجام الظاهري خلافات في

وجهات النظر، فهناك من يدافع عن التيار النازي، بينما يدحضه آخرون ويعتبرونه أسوأ من التيار الشيوعي. إلاّ أننا لو اعتبرنا أن النازية هي أسوأ نظام شهدته البشرية، لأدى ذلك إلى تحديد القيم الأخلاقية لروايتّي الخير والشر. فالضحايا الذين يستحقون الشفقة هم ضحايا النازية، أما الأبطال العظماء فهم أولئك الذين وقفوا في وجه النازية وتصدّوا لها أو حاربوها. فالمصلحون الأخلاقيون الذين يختلف ترتيب القيم لديهم، موجودون حقاً.

وبالنتيجة، ينفرد المصلح الأخلاقي بإحياء ذكريات الخير والشر على حدٍ سواء، من أجل تكريم الصالحين ووصم السيئين بالشر. إننا نلحظ ذلك من حولنا، فنشهد من جهة إحياءً لذكرى الضحايا والأبطال، ومن جهة ثانية إدانةً للمفسدين. يعتقد هؤلاء أن النازيين هم أفضل من يجسدها؛ وكذلك يَعتبِر حزب اليسار الذي يكوّن جزءاً من الرأي العام العالمي، يعتبر أن النازيين هم وحدهم الأشرار. ويتمثّل الشر المطلق الذي يحتاجه المصلح الأخلاقي، بعبارات الفاشية والعنصرية واللاسامية. وعندما يصنّف المصلح الأخلاقي نفسَه من حزب اليسار، فهو يعتبر الجرائم التي اقترفتها النازية أبشع وأفظع من تلك التي اقترفتها الشيوعية. إن كلمة "الإبادة العرقية"، وبشكل خاص تلك المخلّة بالشرف منها، لا تُطلَق على المجازر التي اقترفت في روسيا، أو الصين أو كمبوديا. ويطالب هذا المصلح الأخلاقي بإنزال العقوبة بـ "بينوشيه **Pinochet**"الذي يعتبره المسؤول عن الحكم الاستبدادي الدامي، بينما لا يطالب بالمثل للجنرال "كاسترو **Castro**"، المسؤول هو أيضاً عن حكم استبدادي دامي مماثل. فالمنهج الفكري الفاشي والأنظمة التي تجسده هما في الحقيقة، موضع إدانة من قبل الغالبية العظمى من المواطنين، حيث يوصم بالخيانة كل من يتعاون مع النظام الفاشي والأنظمة التابعة له. أما الواشي، فعلى العكس من ذلك، يمكنه أن يفخر بنفسه، كونه أنجز عملاً أراد فيه الأمن العام.

إن الذين لعبوا دوراً فعّالاً في جرائم النازية في أيامنا هذه، هم قلّة. لكن هذا لا يمنع من إعادة البحث في الماضي للكشف عن أشخاص كانوا يُعتبرون من الأشراف، ثبت في الحقيقة أنهم متورطون من قريب أو من بعيد مع الأنظمة الفاشية؛ لا مانع

إذاً من الوشاية بهم وفضحهم بعد وفاتهم. ومن جهة أخرى، أتاح تفاقم حركات اليمين المتطرّفة عملية تفعيل الاتهامات ضد المتورطين، إن أسوأ شبهة يمكن إثارتها ضد أحدهم "أنه يلعب لعبة اليمين المتطرّف". وبالتالي فإن التحقق من هوية العدو في الماضي تسمح بمتابعة النضال في الحاضر. لا مانع من التوقّف للحظات عند الأشكال التي يأخذها هذا الحاضر.

يجب بادئ الأمر، أن نتحقق من الحيوية المتناقضة للتيار المناهض للفاشية والذي ظهر بعد هزيمة هذا النظام. ففي حين لم يدم وجود الجبهة المناهضة للفاشية في أثناء وجود الدولة النازية، إلاّ خلال مدة قصيرة (بالتحديد منذ ظهور الجبهات الشعبية عام ١٩٣٥ حتى المعاهدة الألمانية – السوفييتية عام ١٩٣٩)، فبعد عام ١٩٤٥ أصبحت هذه الجبهة إحدى أهم القوى في أوروبا الغربية. جاء وجودها ثمرة اقتران الضمير الميت لقسم كبير من الشعب، كما ذكرْتُ ذلك آنفاً، مع الخطة الحاذقة التي وضعتها الأحزاب الشيوعية، حيث نجد أن هذه الأحزاب تترأس حركات تدافع عن قيم لا تقبل النقاش، بما أن إدانة الفاشية قد حصلت على الإجماع العام. أما اليوم فإننا نشهد استمرار وجود التيار المناهض للفاشية على الصعيد الأخلاقي بالتزامن مع تراجع التأثير المباشر للحزب الشيوعي الذي أفقده دوره في مجال السياسة البحت.

وتنتشر العدوى التي تتسبب بها الفاشية مهما بلغ عدد مُرَحِّلات التيار التي يجب المرور من خلالها من أجل توطيد الاتصال. حتى إنها قد تُنجَز دون علم الشخص المعني، وتُعتَبر تصريحاته التي تكشف عن نواياه باطلةً ولاغية. يكفينا إيراد بعض الأمثلة المأخوذة عن أحداث الساعة الفرنسية بهدف توضيح أشكال التعذيب المهذّبة للأخلاق. أول حالة نوردها هنا هي حالة "جيل بيروت **Gilles Perrault**" المعروف بالتزاماته اليسارية المتطرّفة، والذي تعرّض للإدانة لإصراره على عدم القيام بالوشاية بحق اثنين من المتعاطفين السابقين لليساريين؛ صُنفت جريمته من الدرجة الرابعة قياساً بالجريمة الأصلية، ولكنه خرج من القضية بسمعة ملطّخة كما لو أنه اقترف الجريمة الأصلية. وهناك بعض النقّاد الفنيين أمثال "جان كلير **Jean Clair**"، و"جان فيليب

دوميك **Jean Philippe Domecq**"، و"بينوا دوتورتر **Benoît Duteurtre**" الذين تجرؤوا ونقدوا الفن الطليعي الحائز على دعم الدولة مادياً؛ لقد كان هتلر مناهضاً للفنون الطليعية، و جاء نقدهم مطابقاً لمنهج هتلر، فهم إذاً من أنصار هتلر، ولكنهم يعملون في الخفاء. وهناك أيضاً المهاجَمة التي وقع ضحيتها "بيير آندريه تاغيف **Pierre André Taguieff**" أحد أبرز المحللين للتيار العرقي، وللتطرف اليميني في فرنسا، لقد انتهت به معرفته العميقة بالملف إلى وضعه في موضع الشبهة، ثم إنه شارك في نقاشات متناقضة مع مؤلفين من حزب اليمين، كما أنه استجاب للعبة الحوار الخطيرة. وهناك أخيراً "آلان بروسا **Alain Brossat**" المتهم باليسارية، ولمَ لا يُوصم أيضاً باللاسامية، لمجرد أنه وجّه انتقاداً لسياسة الدولة الإسرائيلية الجائرة بحق الفلسطينيين!...

يتضمّن خطاب هؤلاء المصلحين الأخلاقيين نهجاً بلاغياً مثيراً للجدل. فشاهدهم المفضّل هو عبارة "بريشت **Brecht**" التي يقول فيها: "إن البطن التي خرجت منها الدابة لا تتوقف عن الإنجاب"، إنها تشهد التقليد القديم الذي سجل التزامهم الحديث المناهض للفاشية. وللسبب نفسه، فهم يستخدمون باستمرار تعابير مثل "النضال"، "الصمود"، "الحذر"، مستحوذين بذلك على بقايا الفكر الثوري، الذي تشهد أيامنا هذه اندثاره بلا عودة، إذ لا وريث له. تأخذ الاستنتاجات هنا شكل المغالطة المعاصرة، حيث يتم استدلال هوية فردين انطلاقاً من صفة مشتركة: لقد صَدَرَت (س) من دار النشر نفسها التي أصدرت (ص)، وحيث أن هذه الأخيرة متهمة بتعاطفها مع اليمين المتطرّف (العرقية واللاسامية)، إذاً نستخلص من هذا أن (س)...؛ يتم افتراض المعلومة الرئيسة بدلاً من وضعها، فهي غير مؤهلة لإثباتها أو لإلغائها؛ فعوضاً عن قولنا أن (س) هي من أنصار النازية، إذاً عميلة "لفيشي **Vichy**"ومن أنصار "لو بين **Le Pen**"، نقول: "إن الشك قائم، فهل كانت (س) متواطئة؟"

إن الإجراء التأسيسي الأكثر شيوعاً، هو إجراء الشخص الثالث المستبعد، فكل أولئك الذين لا يُصنّفون تحت لواء المناهضين للفاشية مثلنا، يمكن أن توجَّه إليهم تهمة التعاطف مع الفاشية. أما نتيجة هذا الاتهام فهي إضفاء صفة الشيطان على

العدو، فأي صلة مع الشر تعتبر أنها بلغت الحد الأقصى، وتمتد لتطال كل الهيئة المعنية (ومن هنا تُعتبر الجبهة الوطنية فاشية إلى حد ما)؛ إن الموقف الوحيد المناسب لمثل هذا العدو يكمن في إعلان الحرب الأهلية؛ وكل محاولة للتخفيف من التهمة تدخل تحت لواء الخيانة.

لا يرتبط المصلح الأخلاقي رسمياً بالدولة أو بأية مؤسسة حكومية، ولا تخضع أهدافه للتفتيش التعسفي مثلما كان يجري في الماضي، كما أنه لن يجد نفسه في السجن، ولن تُحرق كتبه. يُمارَس المنهج الأخلاقي السليم من خلال وسائل الإعلام، وقد يصل في بعض الأحيان إلى قاعة المحكمة، أو يظهر من خلال كتاب. إلاّ أنه يجب الامتناع عن الإنتقاص من سلطة وسائل الإعلام؛ فالفرد الذي توجَّه إليه تهمة التآمر مع مصادر الشر يجد صعوبة كبيرة في درئها عنه؛ إذ كيف نستطيع تبرئة أنفسنا من الاتهامات التي تستند إلى قيم تمت الموافقة عليها بالإجماع؟ وكما أورد "تاغيف **Taguieff**":"لا يمكن تنفيذ حكم الإعدام العلني في الديمقراطية الحديثة، إلاّ بعد صدور صك اتهام على مستوى كافة وسائل الإعلام[3]". المقصود بكلمة "الاتهام" هنا "الإدانة"، التي تحافظ على قوتها حتى بعد نشر صك تصحيحي أو رسالة ناقصة من أحد القرّاء، بعد مضي ثلاثة أسابيع على قرار الإدانة. تتحوّل الوشاية العامة إلى إشارة تبيّن أن المجال مفتوح أمام المطاردة الحاذقة ضد هؤلاء المتهمين. إن الطرد الجماعي، وآثار الجروح الناتجة عن الريبة ليست أقل فاعلية من أساليب القمع المستخدمة في الماضي حتى لو كانت أقل وحشية.

لسنا هنا بصدد "تبجيل الكاتب" ذلك الحلم الذي لم يتحقق في عهد الرومانسيين في القرن التاسع عشر، إنما نحن أمام انتصار "الإعلاميّ"، الذي يستطيع التأثير على الرأي العام العالمي تبعاً لقناعاته الشخصية، بفضل ذلك السلاح القوي الذي لا يقهر، والذي لم يكن أدباء العصور الماضية يحلمون به، يتمثّل هذا السلاح في وسائل الإعلام، والرائي، والمذياع والصحافة. ولكي يثمر تصرفه، لا بد للمصلح الأخلاقي من تحسين مستواه الثقافي والإعلامي، وأن يوجِد لنفسه منبراً يستطيع من خلاله التأثير على قرّائه

أو مستمعيه. عندما وشى "جوليان بندا **Julien Benda**"[١]، بخيانة الأدباء في مرحلة ما بين الحربين، كان يعتقد أن هناك عدداً كبيراً من المثقفين والمفكرين والفنانين يسخّرون أنفسهم لخدمة المشاريع السياسية التي تقبل النقاش - فما نشاهده اليوم لا يدخل ضمن نطاق الخيانة، إنما هو ارتفاع ملموس في سلطة (العلماء).

يمكننا إقناع أنفسنا بأن ممارسات المصلحين الأخلاقيين ليست بالضرورة مثيرة للإعجاب، إنما لا بد منها من أجل السيطرة على شر أكبر، وربما القضاء عليه. هذه حجة واهية. قد يصل الأمر بالمصلح الأخلاقي إلى الإفراط في التشنيع من صورة العدو إلى درجة تفقدها مصداقيتها وتجعلها مغايرة للأصل. ولا تُعتبر الجبهة الوطنية التي تتميّز بكراهة منهجها، إحياءً للنازية، كما أنها ليست منظمة إرهابية، إنها تحمل في طياتها مطالبات عديدة، تستحق الدراسة والتحليل. وإذا كانت هذه الجبهة الوطنية اليوم أضعف مما كانت عليه في السنوات المنصرمة، فذلك لا يعود للأثر الشيطاني المنبثق عنها، إنما يعود لأسباب تتعلّق بالظروف المحيطة، فالآثار التي ظهرت في فرنسا نتيجة ضعف هذه الجبهة تمثلت في انشطار حزب اليمين المتطرّف إلى قسمين، وإدانة قائده نتيجة ممارسته لأعمال عنف جسدية، و تناقص في نسبة البطالة. يجب علينا ألا ننخدع وأن نواجه الحقيقة، فالظروف لا تزال في تغيّر مستمر، والخطر يمكن أن يهيمن من جديد.

ونتساءل مرة أخرى إذا كان ضعف العدو هذا هو الغاية التي يبحث عنها المصلح الأخلاقي. فخلال سنوات عديدة، وبتحريض محتمل من الرئيس الاشتراكي "فرانسوا ميتيران **François Mitterand**" كانت الأمور تسير كما لو أن إحدى الصحف المؤيدة لحزب اليسار كانت تبذل ما بوسعها من أجل إبراز أهمية حزب اليمين، وذلك بتغطية كاملة لأدنى حركاته وسكناته. إذ كيف لنا أن نطّلع على الكتابات الغامضة لأصحاب "تيار النفي" دون وجود الدعاية المكثفة ضدهم من قبل الواشين؟ كان هؤلاء يتساءلون أحياناً بما أن المجرمين الحقيقيين قد تمت محاكمتهم، فلماذا إذاً تتم

(١) كاتب مقالات فرنسية، ومؤيّد للتيار الفكري القديم ومناهض للأدب الحديث (المترجم).

ملاحقة أصحاب "تيار النفي" على الجرائم التي ارتكبوها ضد الإنسانية؟ ألسنا نمنحهم بذلك شرفاً لا يستحقونه؟ والجواب أنه عندما يزول الخطر الناجم عن "الفاشية الحديثة" أو "النازية الحديثة"، تتلاشى عندئذٍ الحاجة للنضال ضد "التيار المستحدث المناهض للفاشية"، وتزول معها الفائدة الرمزية التي قد يجنيها أصحاب الضمائر الحيّة في محاربتهم لهذا التيار. كان المصلحون الأخلاقيون يتصرّفون وكأنهم يريدون لحزب اليمين المتطرّف أن يبقى ناشطاً، كانوا يساهمون في ذلك على طريقتهم. إنهم يشبهون حزب اليسار عندما قرر في وقت من الأوقات، أن الجبهة الوطنية يجب أن تحافظ على وجودها وقوتها، وذلك من أجل دعم مواقفه، وإضفاء صفة الشرعية عليها، وإضعاف حزب اليمين في آنٍ واحد.

بل وأكثر من ذلك، وكما يحصل غالباً عندما يكون العالم منقسماً إلى كتلتين حصريتين، غير متناظرتين، يأتي العلاج مشابهاً للشر نفسه. حيث أن التطرّف المناهض للتطرّف هو في النهاية تطرف. فعندما نقول إن "لو بين **Le Pen**"يمثّل الرصاص، والـ "إف إن **FN**"رشقة من الطلقات"، فإننا بذلك نردد شعاراً مستحدثاً مناهضاً للفاشية، لا يشبه من حيث الأصل، الشر الذي يدحض. إننا نفصل عن الحزب وعن طيب خاطر أولئك الذين يختلف تفكيرهم عن تفكيرنا، وذلك باسم مقاومة الإقصاء. فمن أجل محاربة حزب اليمين المتطرّف بشكلٍ فعّال، لا يكفي التنديد به، إنما يفضّل التعرّف على الأفكار التي يؤمن بها والبراهين التي يقدمها، ثم نقضها بغيرها أفضل منها. وعلى كلٍ، هذه الخطوة غير كافية من أجل حلّ هذا الحزب، حيث إن الأفكار التي يؤمن بها ليست سوى واحدة من الأسباب التي يستجلب من خلالها الناخبين؛ أما باقي الأسباب فتنحصر في الحاجة لامتلاك هوية الجماعة، والأمن الشخصي، والمعارضة الجذرية.

يجب أن نضيف هنا أن التناظر بين الكتلتين ما هو إلاّ ظاهري، حيث إن الحزب المناهض للتمييز العنصري ليس سيئاً بقدر الحزب المناصر له. لا يمكننا إنشاء تكافؤ بين الحزب المستحدث المناهض للفاشية والحزب المستحدث الفاشي، إننا عندئذٍ نقارن ما لا يقبل المقارنة. في كل يوم تتراءى إلى مسامعنا الممارسات العرقية

الجديدة التي تستهدف أجساد الضحايا وكرامتهم. يتمثّل الشطط الذي تلجأ إليه الأحزاب المستحدثة المناهضة للعرقية بالخطابات التي تطال سمعة بعض الأفراد. يبقى أن نذكر هنا أن هذا النوع من النضال يدعم العدو بدلاً من أن يهزمه؛ ومن جهة أخرى يضعف النقاش العلني بدلاً من أن ينشطه.

في الواقع، وعلى صعيد الاختيار الوجودي أو السياسي، لا يتم استبعاد هؤلاء أو أولئك... كما أننا لسنا مضطرين لتحديد موقفنا بالانحياز إما للتعاطف مع القتلة، أو لإطلاق صرخات الفرح عندما يتلقون الحقنة المميتة. فالعمل الذي يقابل الشر ليس بالضرورة عمل الخير؛ بل يمكن أن يكون عملاً شريراً آخر. قد نختلف بالرأي مع المصلح الأخلاقي دون أن نصبح بسبب ذلك لاساميين، ولا من أصحاب "تيار النفي"، و لا كارهين للأجانب، ولاعرقيين ولا فاشيين ولا من أتباع "لوبين". وللتخلّص من منهج المانوية، الوريث لمذهب الشمولية، الذي يقسم البشرية إلى فئتين منفصلتين عن بعضهما، الطيبون والأشرار، نحن والآخرون، ينبغي إبعاد أنفسنا قدر المستطاع عن المانوية، وبذلك ننقل إلى القرن التالي الوصية التي تنصح أن نبدأ ليس بمقاومة الشر تحت ستار الخير، إنما بالتأكّد من هوية أولئك الذين يدّعون معرفة مواطن الخير والشر؛ كما أننا لا تنصح بمحاربة الشيطان بل ما يدعمه: ألا وهو الفكر المانوي نفسه.

فكلنا ندين المجرمين النازيين، ونرثي لحال ضحاياهم البريئة، ونحترم أولئك الذين عرفوا الصمود أمامهم. يبدو التوافق مريحاً؛ لنتخيّل للحظة أن ازدراء الضحية هو الذي انتصر، كما نصح بذلك "نيتشه **Nietzsche**"، إما تمجيد للنازيين أو مناصبة العداء للصامدين! بيد أن عملية تبنّي هذه المواقف بشكلٍ علني ليست كفيلة بتحسين نفسيتنا أو حتى سياستنا. لماذا؟

لقد أثار كل من "أفلاطون **Platon**"و الكتب السماوية مسألة الأخلاق. لم يكتفِ السيد المسيح بتقديم النصح لإنجاز عدد من الأعمال الحميدة، مثل: الصدقة أو الصلاة أو الصيام؛ لكنه أضاف قائلاً: "حذار من القيام بالأعمال الخيرية رياءً أمام الناس لاستقطاب انتباههم؛ وإلاّ فلن تنالوا المكافأة من أبيكم الذي في السماء [١]".

(١) هذا النص اقتبسته المؤلفة من الكتاب المقدس.

فهو لم يقل: لا تصوموا، لا تتصدقوا بأموالكم. بل طالب القيام بهذه الأعمال "سراً"، "حتى لا تدري شمالك ما تنفق يمينك"، وليس "بهدف التفاخر أمام الناس"، أو "بهدف تحقيق الشهرة والظهور بين الناس[4]". انتشر هذا المطلب الغريب عن عالم الوثنية القديم (حيث كان البطل يسعى وراء المجد والشهرة، بدلاً من تجنبهما)، بعيداً عن سياقه الأصلي، لقد فقد اليوم خصوصيته الدينية. فعندما نقول (كما قال "كانت Kant"وأيضاً وفقاً للتفكير السليم في وقتنا الراهن)، إن الفعل الأخلاقي لا يمكن أن يصبح نفعياً، فإننا بذلك نطبّق إرشادات السيد المسيح عندما قال: "إن أفعالنا تفقد هدفها السامي عندما تقترن برغبتنا في نيل الجزاء من الناس".

ترى هل يُعتبر موضوع التنازل عن استقطاب نظرة الآخرين بسيطاً؟ لا يفترض بالمؤمن الورع أن يحدث هذا الأمر مشكلة بالنسبة له، وليس عليه أن ينتظر الجزاء من البشر، بما أن السيد المسيح قد بشره: "بأن أبيكم المطّلع على خفايا الأمور، سيكافئه عليها". لو ضعف إيماننا بأن أبانا لا يخفى عليه مثقال ذرة في هذه الحياة الدنيا، وأنه سيجزي كلاً على عمله يوم الحساب العظيم، فكيف نتصرّف إذاً؟ سنقوم حتماً بالبحث عن نيل استحسان البشر؛ بيد أن المكافأة التي تصدر عن البشر تجعل عملنا نفعياً. إن الطريق إلى العمل الأخلاقي هو طريق منعزل، وعندما نقرر سلوكه فلأنه يحقق سعادة الآخرين التي هي في النهاية سعادتنا، وليس سعياً منّا وراء الشهرة.

إذا أعلن أحدهم اليوم أنه يقف من الناحية السليمة للأمور، وأنه يدين الأشرار كما ينبغي، ويرثي لحال الضعفاء، ويعظّم الأقوياء، فإنه لا يضيف أي شيء لقيمته؛ فتقديم النصح للآخرين لا يدخل في لائحة العمل الأخلاقي. إن فضيلة البطل، ومجد الضحية لا يؤثّران أبداً على المعجبين بهم، مهما كانت أحلام هؤلاء، إذ إننا لا نمارس أي عمل بطولي عندما نعجب ببطل ذاع صيته عالمياً. بل على العكس، إن الضمير الحيّ يجمد الإحسان. يبدو الأمر طبيعياً وحميداً عندما نستمتع بالمنزلة الشريفة لذوينا الأبطال، أو عندما نتعاطف مع الألم الذي عانوا منه إذا كانوا ضحايا؛ ولكن ما إن نعلن عن هذه المشاعر على الملأ، حتى تتخذ منحىً إضافياً؛ فنحن بذلك نخدم مصلحتنا الشخصية، وليس تربيتنا الأخلاقية. إذا أصررنا على

الاستغاثة بالطيبين والأشرار و الضحايا بشكل مقدس ورسمي ليشهدوا على الماضي، فإننا بذلك نستطيع أن نثير إعجاب مجموعتنا، ولكننا لا نفي ضميرنا حقه، وكذلك الأمر إذا اكتفينا بمناصرة القيم المعروفة. إن إحياء الماضي بشكلٍ علني لا يقدم لنا الدروس والعبر إلاّ إذا كنا متهمين شخصياً، ويثبت لنا أننا لم نجسّد في يوم من الأيام مفاهيم الخير أو القوة.

يختلف العمل الأخلاقي عن العمل البوليسي، كون الأول عملاً فردياً بعيداً عن الجمهور، أما الآخر فيتم تقييمه وفقاً للنتائج التي يحرزها، وليس لدوافع المنفذين له. إن متعاطي السياسة الذي يسهم في توفير الرخاء لشعبه، يبقى سياسياً جيداً حتى لو كان دافعه هو رغبته في بلوغ المجد. ويتخذ الخطر هنا شكلاً آخر، يمكن أن نعبّر عنه "بأنه تلك النزعة التي ترمي إلى أعمال الخير"، والتي هي أكثر انتشاراً من "النزعة التي تستهدف أعمال الشر" وأيضاً أكثر خطورة. يكفي أن نتفحّص التاريخ في أية بقعة من العالم لكي نوقن أن الضحايا الذين كانوا يسعون بحثاً عن الخير هم أكثر عدداً من أولئك الساعين إلى الشر. هذه النزعة تدفعنا لإدراك أننا نجسّد الخير ونريد فرضه على من هم حولنا، متجاوزين نطاق الحياة الخاصة إلى مضمار الحياة العامة. وبالنتيجة يختلط الأمر بين الأخلاق والسياسة بشكل متناظر ومتعاكس مع ما يدور في الأنظمة الشمولية، حيث تخضع الخيارات الأخلاقية للغايات السياسية، فكل ما يخدم هدفنا الآني، أو انتصار الثور، أو استبداد الحزب يعتبر عملاً حميداً. أما هنا فعلى العكس، إننا نجني التضامن تحت شعار الأخلاق التي تملي خياراتها على السياسة. كذلك هي الحياة السياسية في الحكومة الدينية (التي يتولى فيها رجال الدين السلطة)، إذا تخيلنا أن علم اللاهوت قد استُبدِل بالأخلاق؛ ففي خارج البلاد جاءت الحروب الصليبية (التي تستهدف فرض مفاهيم الخير على الشعوب، سواء أرادوا ذلك أو رفضوه)؛ وفي الداخل تسيطر حكومة الفضيلة، ويعم الاضطهاد "لكل ما ينافي الأخلاق". إن دولنا، تلك الديمقراطيات المتحرّرة، ليست مهددة بهذا الانحراف، بما أن مؤسساتنا تحافظ على علمانيتها؛ أما مجتمعاتنا بالمقابل، فهي ليست محصنّة ضدها.

ليس من السهل أن نجد طريقاً وسطاً بين اللامبالاة الأخلاقية ووضعية المصلح الأخلاقي؛ ولكن الأمر يستحق المحاولة. إن غياب الأخلاق الرسمية عن الدولة نفسها يستدعي إيجاد مخرج، حيث يشعر كل فرد يعمل مع الجماعة بحاجته إلى التعلّق بمجموعة قيم أخلاقية، ويفضّل أن تكون مجسدة برواية مثالية. هكذا على الأغلب تتصرّف المجموعات التي تمارس الضغط والتي هي في صراع فيما بينها للاستئثار بالمركز الأقوى داخل هذا المجتمع. تلك هي النزعة المهيمنة في عصرنا "الفردي"، إذ تدفعنا للتعويض عن النقص الذي نعاني منه. بيد أن كل ذلك لا يضفي أي شيء على فضيلة الراوي، كما أن مجتمعاتنا ليس لها أية مصلحة للاستسلام "لنزعة الخير". فكل فرد فينا يستطيع مواجهة ضغط القرن و"تقبله أو رفضه"، كما أورد ذلك "روسو **Rousseau**".

obeikandl.com

الأسطورة والتاريخ

هيمن خلال عصر النهضة (الذي ساد في أوروبا، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر) علم تفسير الإيقونات؛ كانت تمثِّل الذكرى على شكل امرأة ذات وجهين، أحدهما ملتفت إلى الماضي والآخر يتطلّع إلى الحاضر؛ ماسكة بإحدى يديها كتاب (لسبر المعلومات)، وفي الأخرى ريشة (لتدوين كتبٍ جديدة). يتطلّب عمل الذاكرة التركيز على مطلبين، وهما الوفاء للماضي، والمنفعة للحاضر. ولكن ما الذي يحصل عندما تدخل هذه الأمور في صراع، عندما نعيد سرد الوقائع بشكل صادق قد يؤدي إلى نتائج وخيمة؟

لقد كاد نقاشان قريبا العهد حول شخصيات عامة، أن يثيرا صراعاً. كان موضوع الحوار يدور حول أفراد تخيّلهم الشعب كأبطال. البطل الأول كان "آرتور لندن **Arthur London**"؛ من أصلٍ تشيكي، مات عام ١٩٨٦، كان يعمل موظفاً في الحزب الشيوعي الدولي الذي ساهم في حرب إسبانيا؛ تزوج من فرنسية وعمل كقائد للمقاومة الشيوعية في فرنسا قبل أن يتم نفيه إلى معسكر (موتهاوزن **Mauthausen**). أمضى عدة سنوات في أوروبا الغربية في فترة ما بعد الحرب؛ لدى عودته إلى براغ، تم تعيينه نائباً لوزير الشؤون الخارجية عام ١٩٤٨. ولكنه اعتُقل في عام ١٩٥١ وحكم عليه بالسجن المؤبد في إطار قضية (سلانسكي **Slansky**)، التي أسفرت عن إعدام أغلبية أبطالها. أطلق سراحه بعد عام ١٩٥٥، ورُدَّ إليه اعتباره؛ وأخيراً استقر به الأمر في فرنسا عام ١٩٦٣. أصدر عام ١٩٨٦ كتاباً بعنوان (الاعتراف)"، يحكي فيه تجربته داخل السجن. قام "كوستا غافراس **Costa Gavras**"بإعداد هذا المؤلَّف للسينما، حيث قام بدور لندن الممثل "إيف مونتان **Yves Montand**"؛ وعُرض الفيلم في جميع أنحاء العالم.

في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٩٦، أصدر "كاريل بارتوسيك **Karel Bartosek**" كتاباً بعنوان (اعترافات من المحفوظات)[5]، خصصه للتحدّث عن العلاقات بين الأحزاب الشيوعية التشيكية والفرنسية، مستغلاً في ذلك محفوظات مدينة براغ

التي تم أخيراً الإفراج عنها. كان "كاريل بارتوسيك" مؤرخاً تشيكياً، عاش في فرنسا منذ عام ١٩٨٢؛ وقد تعرّض شخصياً "للقمع" غداة الاجتياح السوفييتي للبلاد عام ١٩٦٨ (لقد فقد عمله كباحث علمي بعد ستة أشهر أمضاها في السجن، وأصبح عاملاً يدوياً قبل أن يُجرّد من جنسيته وينفى). خَصّص في كتابه فصلاً كاملاً تحدّث فيه عن شخصية "لندن **London**"، أثار هذا الفصل مشادّة كلامية في الوسط الإعلامي. وقد تعرّضت المناظرة الكلامية لموضوعين أساسيين، تناول الموضوع الأول قصة حياة "لندن" بأدق تفاصيلها؛ كان المعارضون الرئيسيون لـ"كاريل بارتوسيك" أقرباء للثائر الميت. أما الموضوع الثاني، فقد تناول دور التاريخ في المجتمع المعاصر؛ قاد هذا النقاش المؤرخون والصحفيون.

تركزّت الحجة التي نقدوا من خلالها "بارتوسيك" في النقاش الثاني، أنه ومن كل التفاصيل الخاصة التي ذكرت عن حياة "لندن"، يجب اختيار ما يعود بالفائدة منها على المجتمع فقط. لقد وردت الحجج الكاملة التي تدافع عن وجهة النظر هذه في مقالٍ نشر في "العالم **Le Monde**" الفرنسية في كانون الأول من عام ١٩٩٦. تناول هذا المقال تحليلاً للظروف الصعبة التي يعيشها العالم اليوم، بسبب أن "حزب اليمين المتطرّف يجوب في شوارع المدن"؛ من الضروري إذاً الحفاظ على شعلة الصراع المناهض للفاشية متقدة، والاستمرار في تأكيد " أن الأبطال هم الأبطال، وأن حرب اسبانيا الجمهورية هي الحرب الصحيحة، [...] وأن "آرتور وليز لندن **Arthur & Lise London**"هما الرمزان الخالدان للولع الصادق بالشيوعية؛ إلى جانب "جان مولان **Jean Moulin**" الذي قاد المقاومة في فرنسا وقتل على يد النازيين، "كان رئيس الملائكة النقي للثورة الوطنية". من وجهة النظر هذه، لا بد من أن نصم بالخيانة كل من يحاول إلقاء الشك حول هذه الشخصيات الاستثنائية الفريدة، بتقديمهم البراهين على "أن هؤلاء الأبطال ليسوا سوى شخصيات وهمية"، بذلك فإنهم ينمّوا في أعماقنا "الحقد بحق كل بطل وكل قديس"، متذرعين بإتمام عملهم كمؤرخين. إن هؤلاء المؤرخين يدعمون حزب اليمين المتطرّف في صراعه ضد الشعور الأخلاقي بشكل عام، والالتزام الوطني بشكلٍ خاص.

لقد اعترض قسم كبير من المؤرخين على طريقة رؤية دور المؤرخ من هذه الزاوية، والتي تؤكّد بدورها بعض الحقائق غير الصالحة للنشر (ففي صحيفة العالم الفرنسية، تم نشر رسالة مفتوحة موجّهة إلى بارتوسيك). كان لتلك الواقعة مثيلاتها السابقة في فرنسا، وكانت شهيرة. أما الأولى فكانت تخص قضية "دريفوس" الضابط الفرنسي، الذي اتُهم وأُدين ظلماً بالتجسس، ثم رد إليه اعتباره، لقد قال بشأنه "موريس باريس **Maurice Barrès**" أحد رؤساء الرتل المناهض لدريفوس، "حتى لو كان دريفوس على حق، يجب علينا إدانته ولاّ سنفقد ثقتنا بالجيش الفرنسي، حتى لو ثبتت براءة أحدهم، يبقى أتباع دريفوس مجرمين [6]". وأما القضية الثانية الشهيرة فكانت تخص "سارتر **Sartre**" الذي استنكر في أوائل الخمسينيات التصريحات حول معسكرات الاعتقال في الاتحاد السوفييتي؛ ونذكر عبارته هنا -التي ربما تكون مختلقة ولكنها معروفة - "لا تيأس يا بيلانكور **Billancourt**"، والتي يعني من خلالها الطبقة العاملة، ويقول له إن "موطن الاشتراكية" ليس هو جنة الأرض. كما كان يسود الاعتقاد أيضاً في تلك الحقبة الزمنية، أن مثل هذه التصريحات قد تضر بقضية السلام، أو أنها قد تلعب لعبة الامبريالية الأمريكية، وهكذا دواليك.

من هذا المنطلق، يتوقف دور المؤّرخ في بحثه عن الحقيقة ويبقى محصوراً فقط في أفعال الخير، ولا يعود سوى مروّج للدعايات كغيره - موقفٌ قد يحظى بدفاعنا إذا حصلنا على قناعة تامة بأنه لا وجود للوقائع، إنما فقط خطابات حول الوقائع. في هذه المرحلة لا يختلف المؤّرخ عن محيي الذكرى. هذا يعني في الحقيقة انهيار كافة أشكال العلم، الذي يرتكز بدوره على المسلّمة القائلة بأن المعرفة ليست سوى إسقاط حقيقي للإرادة.

لكننا نتساءل من وجهة النظر العملية، التي هي وجهة نظر "باريس وسارتر" وتلامذتهم المعاصرين، ألا يؤدي إهمالنا في تقصّي الحقائق إلى خسارة القضايا التي ندافع عنها؟ لقد أدىّ اكتشاف الاحتيال في قضية "دريفوس" إلى توريط أولئك الذين يناهضونه في فرنسا لفترة من الزمن. كما أدّت أكاذيب الشيوعيين إلى القضاء على

أية رغبة في تبنّي أفكار الشيوعية. هل تبقى مقاومتنا الراهنة ضد حزب اليمين المتطرّف كافية إذا تركنا له الاستئثار بالحقيقة؟ فَخَطَر المنهج السياسي السليم حقيقي، وسرعان ما تتكشّف الأكاذيب الورعة التي كنا نتستّر بها على المواقف، وتنهار. هل نستطيع توقّع الآثار السلبية التي يخلفها الكشف عن حقيقةٍ تمّ إخفاؤها عمداً؟ بدلاً من أن تخدم القضية الشريفة، فإنها على العكس، تساهم في فقد الثقة بها. إننا نذكر جيداً مجزرة غابة (كاتين)، لقد حاولت السلطة السوفييتية خلال أكثر من خمس وأربعين سنة، إلقاء اللوم على النازيين وتحميلهم مسؤولية مقتل آلاف الضباط البولونيين، كل ذلك من أجل الحفاظ على صورتها ضد التشويه. وقد ألحق اكتشاف الحقيقة فيما بعد، ضربة قاضية بمصداقية التصريحات السوفييتية الرسمية.

يجب هنا الفصل بين أدوار كلٍ من السياسي والمؤرّخ. فهدف الأول هو التأثير على عقل المواطنين؛ إنه لا يحتاج للجوء إلى الكذب، عليه فقط من أجل بلوغ النتيجة المرتقبة، أن يختار بعض الأحداث دوناً عن غيرها. لم يكن من مصلحة الجنرال "ديغول" تذكير الفرنسيين عام ١٩٤٠ بمواقفهم الماضية التي تدلّ على الضعف والجبن ؛ لكنه لجأ إلى إثارة قصة المناضلة "جان دارك **Jeanne-d'Arc**"[١]، لحثّهم على المقاومة. أما هدف المؤرّخ فعلى العكس، لا ينحصر في تصوير الشخصيات الورِعة، أو في الإسهام بتمجيد الأبطال والقديسين، أو التذلل أمام "رئيس الملائكة"؛ ولكن عليه الاقتراب قدر الإمكان من الحقيقة، وفي حدود إمكانياته.

بهذا المعنى، من يقول بالتاريخ يقول بالتقديس. إذ يُمنَع الاقتراب من كل ما هو مقدّس، تحت طائلة العقاب. بيد أن التاريخ ينزع القدسية عن المجال العام، ويدنّس، بالمعنى الحقيقي للتعبير، كل وسائل التمجيد؛ خلافاً لعبادة الأوثان، فإنه (أي التاريخ) يساهم بطبيعته "بخيبة أمل العالم" التي تكلّم عنها "ماكس ويبر **Max Weber**"والتي اعتبرها كسمة جوهرية للعصرية. ربما كان يحظَّر على المؤرّخ في فترات الأزمات القصوى، مثل الاحتلال النازي خلال الحرب العالمية الثانية، أن يقترب من أجزاء

(١) تلك البطلة الفرنسية الشابة التي ماتت حرقاً على يد الإنكليز (المترجم).

التاريخ التي قد تثني المواطنين عن عزيمتهم؛ ولكن هذا لا يسمح له بخداعهم عن طريق الإيحاء لهم بأن عمله هو تدوين للتاريخ حين لا يكون سوى ترويج دعائي شخصي من قبله. استمرت طريقة تفكير الجنرال ديغول من عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٦٩، حيث كان يقول: "إن بلدنا لا يحتاج إلى معرفة الحقيقة. كل ما يحتاجه هو مده بالأمل، وروح الترابط، والهدف"، تلك كانت أقواله بخصوص الفيلم السينمائي الذي عرض في تلك الفترة بعنوان "الحزن والشفقة[7]". ولأسباب مشابهة لم يشجع أي طرف وطني في فرنسا الأبحاث التاريخية المتعمقة حول حكومة "فيشي Vichy"في السنوات التي تبعت الحرب العالمية الثانية، فتبرّع مؤرخون من ألمانيا وأمريكا وبكل موضوعية ودون تحيّز، بتدوين تاريخ فرنسا في تلك الحقبة من ماضيها القريب، فقَبِل الرأي العام تلك الحقيقة، وظهر أن سياسة "فيشي" لم تكن الدرع الواقي ضد التجاوزات الألمانية، كما كان يدّعي ذلك. وينتابنا الشك اليوم، أنه مهما استبد بنا القلق نتيجة سيطرة حزب اليمين المتطرّف، فإننا نعيش فترة أزمة مماثلة.

كيف نستطيع أن نقيّم اليوم الدور التاريخي لشخصية مثل "لندن"؟ إن الاكتشافات التي توصّل إليها "بارتوسيك" من المحفوظات تتناول عدة لحظات من سيرته الذاتية. لقد ولد "لندن" عام ١٩١٥ وأصبح عضواً موظفاً في هيئة (الكومينترن) ومقرها في موسكو، التي أقام فيها بدءاً من عام ١٩٣٤ . ثم التحق بالفرقة الدولية في اسبانيا بين عامي ١٩٣٧-١٩٣٨، دون المشاركة في المعارك؛ قاد المفرزة الأوروبية الشرقية "لدائرة التحقيق العسكري"، وهي شرطة عسكرية تنتمي إلى البوليس السياسي السوفييتي؛ وقام بعملية تطهير للعناصر التي لا يمكن الوثوق بها. وبعد الحرب، عمل "لندن" في دائرة الاستخبارات والبوليس السياسي التشيكي في كل من سويسرا وفرنسا.. ويصادفنا في هذه المرحلة أمرٌ غير ملائم، لقد حرر "لندن" أول تقريرٍ له ضد "نويل فيلد Noël Field" ذلك الشيوعي الأمريكي؛ استُخدم هذا التقرير فيما بعد ضد "لندن" في قضية براغ. لم يسلّط "لندن" الضوء في كتابه (الاعتراف)، على هذه التفاصيل من حياته.

إن الكشف عن هذه الوقائع اليوم له وقع سيئ. ومن هنا ندرك سبب تمرّد أقارب "لندن" نفسه، يدعمهم بعض المؤرخين المنعزلين، ضد هذه الأحداث. لقد عبّروا عن رأيهم باختصار قائلين إن القناعات السياسية للإنسان الذي عرفناه كانت قوية، لقد بدا لنا كمتمرّد محترف، وليس كجاسوس أو كشرطي. كانت المثل العليا التي يؤمن بها سامية، كان مفعماً بالشجاعة والكرم، وقد أثبت كل هذا في الظروف الصعبة التي مرّ بها عندما اشترك في المقاومة السرية، ولدى اعتقاله.

من العبر التي نستخلصها من هذه المجابهة أن علينا الاستماع إلى كلا الموضوعين لا أن نختار بينهما. لقد عبّر عن ذلك أقارب "لندن" على طريقتهم الخاصة، عندما حاولوا تبرير تورط آبائهم وأصدقائهم في شبكة التجسس التي كُشف النقاب عنها في فرنسا؛ "حيث جرت هذه القضية ضمن إطار الحرب الباردة، وصُنِفتْ تحت لواء الوفاء الأعمى للمَثَل الدولي الأعلى". لقد اعتقد أناس على غرار "لندن"، أن الغاية تبرر الوسيلة. إنهم لا ينتمون إلى أولئك الوقحين الذين يسرقون أموال الدولة ليملؤوا بها جيوبهم؛ إنهم أناس مثاليون يعتقدون أن الشيوعية هي أفضل وضع ممكن للبشرية. إنهم قادرون على فعل أي شيء للإسهام في سيادتها (وهذه أيضاً يعتقدون أنها ستتم في المستقبل البعيد)، حتى لو اضطروا لإجراء عملية "تطهير" لأنفسهم، أو وجدوا أنفسهم مجبرين على التجسس، والوشاية، وإشاعة الأخبار الكاذبة، والتسبب في تعذيب البشر، بل وفي موت الكثيرين منهم. إن علم الأخلاق مسخرٌ كلياً للسياسة، تلك هي عقيدة الشيوعية. وكما ذكر ذلك (جاك روسي **Jacques Rossi**)، عضوٌ آخر في هيئة (الكومينترن)، مردداً كلام (لينين) "إن علم الأخلاق هو الذي يخدم مصالح طبقة البروليتاريا[8]".

عندما نطالع تاريخ القادة الشيوعيين الذين عاشوا في تلك الآونة، لا يسعنا إلا أن نعبّر عن دهشتنا للطابع المأساوي الذي اتخذته هذه الفترة (كما رأينا ذلك في حالة هينز نيومان). لقد نشر "بارتوسيك" كملحق لكتابه، رسائل الوداع التي حررها القادة التشيك الأحد عشر، قبل تنفيذ حكم الإعدام فيهم شنقاً، ضمن إطار قضية "سلانسكي"، لم تتصّف هذه الرسائل بأنها مؤثرة على الصعيد الإنساني فقط، إنما

كانت شاهدة على اعتراف هؤلاء الرجال عشية مقتلهم، على استمرار ولائهم للمثل الأعلى، في الوقت الذي عانوا فيه أشد أنواع التعذيب الجسدي والنفسي، والأسوأ على الإطلاق، وكانوا على يقين بأنهم أبرياء من الجرائم التي نُسبت إليهم. ويتكرر الأمر مع "نويل فيلد" الذي تم إطلاق سراحه عام ١٩٥٤، هذا الرجل الذي سحقته أنواع التعذيب التي لقيها، كان همه الوحيد التصريح عن وفائه الأبدي للحزب (لقد رفض العودة إلى الولايات المتحدة وآثر الموت في "المعسكر الاشتراكي"). ولم يكن مصير "نيكولاي بوكارين **Nikolaï Boukharine**" مختلفاً عنه، فقد حكم عليه بالموت بعد إذاقته ألوان مختلفة من الإذلال والتحقير والتعذيب التي رافقت استجوابه بشأن قضيته، لقد أرسَل إلى "ستالين" رسالة شخصية يؤكد له فيها حبه وولاءه له، وللحزب، وللثورة، وللشيوعية... وبدلاً من أن يوجّه له العتاب على الظلم الذي لقيه والذي كان سبباً لمعاناته، كان يسأله الصفح، فقد كتب في الرسالة: "الوداع إلى ملك القرون، ولا تحقد على عبدك البائس الذي هو أنا[9]".

تستحق الدعاوى المقامة ضد قادة الحزب خلال السنوات من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٣ وقوف المؤرخين عندها؛ ومع ذلك ليس عليهم إخفاء السمات العظمى للقمع، والتي من أولى آثاره عدم توجيه الضربات للشيوعيين الآخرين. لقد أنشأ "بارتوسيك" إحصائية بليغة في هذا الصدد، حيث قال: "يمثّل الشيوعيون خلال المرحلة الواقعة بين ١٩٤٨-١٩٥٤ حوالي ٠,١ ٪ من المُدانين، حُكم على ٥ ٪ منهم بالإعدام، وكان ١٪ منهم في عداد الأموات". لدى مطالعتنا لهذه الأرقام، ندرك بشكل أفضل الظلم في تقديم "لندن" على أنه الضحية المثلى للسلطة الشيوعية؛ والأسوأ من كل ذلك، تعمل السلطة جاهدة من أجل إقناع العالم بهذا الأمر، حرصاً منها على مصلحتها. في الواقع، إن القادة الذين تعرضوا للاضطهاد ينتمون إلى الفئة الثالثة لأعمال القمع، الأضعف بين الكل، كان ترتيبهم يأتي بعد أولئك الذين اتهموا بالتواطؤ مع الفاشية؛ وبعد الفئة التي لم تكن تُظهر الاندفاع الكافي في تعاونها مع الشيوعيين.

عندما أطلق سراح "لندن" وأعيد إليه اعتباره، بقي محافظاً على إخلاصه للمثل الشيوعية؛ يمكن إذاً نسب مخلّفات السنوات الماضية إلى سجّل رجال الشرطة غير

الأكفاء أو الفاسدين، وفي أسوأ الحالات في سجّل ستالين. سواء شاء أو رفض، استمر "لندن" في خدمة السلطة الشيوعية في كتاب "الاعتراف". وندرك هنا سبب عدم تعرّف أقاربه وأناس آخرين مثله، ومن باب أولى أولئك الذين لا يزالون على قيد الحياة، على عمل الباحثين المعاصرين؛ إنه الصراع الذي شهدناه بين الشاهد والمؤرّخ. علماً أن كلا الطرفين صادق في رؤياه، ولكنه يختلف مع الآخر. فمثلاً يمكن للفرد نفسه أن يكون في آنٍ واحد ذلك الإنسان المندفع، وذلك الموظف عديم الرحمة المسؤول عن أعمال القمع (لقد عرفتُ مثل هذه النماذج في بلغاريا). فالنص السينمائي الذي يتحرك بموجبه أولئك المتوحشون لا يمت إلى تاريخ البشرية بأية صلة.

أما النقاش الثاني فلقد دار حول قصة الزوجين "لوسي وريمون أوبراك **Lucie& Raymond Aubrac**" وهما من المقاومة الفرنسية. فمن أجل دحض بعض التلميحات التي تناولت دورهما في المقاومة، دعا الزوجان بعض المؤرّخين المرموقين للاجتماع حول الطاولة المستديرة، الذي نظمته صحيفة "التحرير **Libération**" في شهر أيار من عام ١٩٧٧، بهدف التثبيت النهائي والدقيق للأحداث التي تخصهما. بيد أن نتائج هذا الحوار التي نشرتها هذه الصحيفة في شهر تموز من العام نفسه، جاءت مخيبة لآمال الزوجين.

صحيح أن المؤرخين قد أوضحوا أن تلك التلميحات لا أساس لها من الصحة، ولكنهم ذكروا في الوقت نفسه، أن شهادة الزوجين لم تكن دقيقة بالقدر الكافي، حيث مرت عليها سنوات عديدة. لقد قدّم (ريمون) في لحظات متفرقة، روايات مختلفة للوقائع نفسها؛ واعترفت زوجته (لوسي) أنها منحت نفسها بعض الحريات في سرد الحقيقة التاريخية، من أجل إسباغ بعض الحيوية على شهادتها من ناحية كونهما من أعضاء المقاومة، فلا غبار على الزوجين (أوبراك)؛ ولكن من ناحية شهادتهما، فإنها لم تتسم بالدقة المطلوبة. وبدورها أثارت هذه المسلّمة مشادّة كلامية موازية للمناظرة السابقة، فهل من المفيد تشويه صورة الأبطال، حتى لو بشكل طفيف؟ هل يتحتّم تحطيم الأصنام بأي ثمن؟ ألم يكن من الأجدر الحفاظ على الأسطورة كما وردت؟ واختتمت (لوسي أوبراك) تأملاتها التي أفصحت عنها. أثناء

حوار الطاولة المستديرة، واضعة المؤرخين من ناحية، "المعروفين بجديّتهم"، والذين لا يتقنون سوى "الاعتماد على القواعد التقليدية لدراسة حقبة زمنية بكل ما فيها من وقائع، وتواريخ، وتحليلات، ونتائج"، أولئك المتخصصين "الذين تعهدوا بتخزين التاريخ في حقيقته المجردة والخالية من العواطف"؛ لقد وضعت (لوسي) هؤلاء المؤرخين بالمقارنة مع الشهود مثلها من ناحية أخرى، فالمعروف عنها أنها "عالمة تربية قبل كل شيء"، وتدافع عن "شرف المقاومة"، حيث قالت: "سأعرّف العالم بأسره بقيمة المقاومة ومجدها، مستخدمة كل الوسائل التي تتهيأ لي، سواء عن طريق تأليف الكتب، أو تمثيل الأفلام، أو إجراء لقاءات على الشاشة الصغيرة". لقد تأثر بأقوالها معلقون آخرون، وقالوا: ألم نشهد فيما سبق حادثة تنفيذ إعدام رمزية لزوجين ينتميان إلى المقاومة؟ ألا يلقى من يسير في طريق المقاومة اليوم التهديد نفسه؟

ومرة أخرى، نجد أنفسنا مضطرين للمقارنة والتمييز بين دور كل من الشاهد، ومحيي الذكرى والمؤرّخ، من حيث اختلاف متطلباتهم. إننا نتوقّع من الشاهد الصدق البحت في أقواله؛ كونه يخطئ في بعض الوقائع أمر مقبول، فهو ليس في النهاية سوى إنسان. ومحيي الذكرى، بدوره، يقوم بالأمر بشكل علني، فتقوده مقتضيات اللحظة الراهنة إلى الانتقاء من الماضي ما يناسبه من أحداث. أما المؤرّخ، فهل نقبل منه، العدول عن سرد الحقائق المجردة والخالية من أية انفعالات؟

كان لهذا الأمر وقعٌ شديدٌ على المقاومين الذين شاركوا في النقاش. فلقد طالب "فرانسوا بيداريدا **François Bédarida**"بحق "إعادة إنشاء سلسلة الحقائق بتروٍّ"، وذكّر " أن واجب سرد الحقائق" هو من اختصاص المؤرخين؛ ولكي تكون شرعية وفعالة، "يجب على سياسة الذاكرة أن تستند إلى الحقيقة". وقال "جان بيير آزيما **Jean-Pierre Azéma**"من ناحيته (يجب حظر أي خطاب "سليم من الناحية السياسية" بحجة النوعية المتقدمة بوجه العموم لهذه القضية أو تلك، حتى لو كانت هذه القضية تتعلّق بصراع الطبقات أو بإبادة الشعب اليهودي)؛ "ليس على المؤرّخ تحت أي ظرف، أن يسخّر نفسه خادماً لهذه أو لتلك الذكرى الخاصة في أثناء تأديته لعمله[10]". واعترض "هنري روسو **Henry Rousso**"على فكرة "الأسطورة الضرورية"،

و الامتناع عن ذكر "الحقائق البشعة"، قبل أن يختم أن هدف المؤرّخ هو تقديم المعرفة وليس الإيمان بها وتصديقها: "يجب ألا يقتصر نقل الماضي على التقديس السلبي للأبطال والضحايا[11]".

في أيامنا هذه، يبدو أمر الخوض في موضوع تاريخي حول "الطيبين" و"الأشرار" على درجة من الصعوبة. وخلافاً لما هو سائد، ولما يؤكده بعض الكتّاب الأجانب الذين تردهم الأخبار مشوهة، فإن فرنسا اليوم لا تمانع من فضح أعمال الفجور التي هيمنت على حكومة "فيشي" أو معاونيه؛ لأن الكتب التي نشرت حول هذا الموضوع لا تُعد ولا تُحصى، والصحف لا تبخل بتقديم أية معلومة جديدة قد تحصل عليها. ولكن بالمقابل، يصعب علينا اليوم تقصّي ونشر أبحاثٍ عن أبطال الزمن الغابر، سواء كانوا من الشيوعيين أو من حزب ديغول، لئلا يحتدم سخط مُقَدّسي التماثيل، فيرفعون قضايا تشهير ضد الباحثين أنفسهم. من هنا ندرك سبب الحذر لدى الناشرين. لقد شعر المشاركون في المقاومة والشهود لتلك الأحداث المأساوية بالإهانة، إنهم يتساءلون على أي أساس يعاد النظر في قضية رؤيتهم للأحداث، في حين أنهم الوحيدون الذين عانوا جسدياً من جراء صمودهم؟ بيد أن رجال المقاومة القدماء الذين يأسروننا بأفعالهم في الماضي لا يملكون الحظوة لنقله إلى الحاضر؛ إن رغبتهم في تقديس روايتهم الشخصية عن التاريخ لا تقدم أية خدمة في الاطلاع على الماضي، كما أنها لا تضيف شيئاً إلى الحاضر. كتب (روسو **Rousso**) في ذلك: "يخطئ من يعتقد من بين المؤرخين ومن بين المقاومين القدماء أنهم عندما يقومون بتدوين تاريخ المقاومة، يستطيعون الإبقاء على قيمتها المؤّثرة [12]". فعالم القيم لا يبدو غريباً عن المؤرخ، حيث إن غالبية المؤرخين المعاصرين يفضّلون القيم المتعلقة بالمقاومة على تلك التي تميّز النازية؛ لكنهم يصرّون على تعلقهم بالبحث عن الحقيقة دون خدشها، فإصرارهم يشكل القيمة الأهم من وجهة نظرهم.

العدالة والتاريخ

إن تبجيلنا للذاكرة لا يخدم في كثير من الأحيان التاريخ بالشكل المطلوب؛ وكذلك الأمر بالنسبة للعدالة عندما تتوقف عن كونها مصدراً للوثائق التي تقدَّم للتاريخ من أجل تحليلها، وتصبح إخراجاً للمعرفة التاريخية. لقد شهدت فرنسا مؤخراً دعاوى أقيمت على جرائم ضد الإنسانية، كان يقال لنا إنها تُرفع بهدف إحياء ذاكرة الشعب. مع ذلك، ارتفعت بعض الأصوات عالياً، كان من بينها صوت "سيمون فيل **Simone Veil**" كانت تسأل – بحق – هل يتحتّم علينا إثارة القضايا داخل أروقة المحاكم للإبقاء على ذاكرة الشعوب حيّة؟ بالإضافة إلى الخطر الناجم عن إقامة العدالة لإعطاء المُثل والعبر التي يمكن أن تنتج عن القضايا، نجد هذه الذاكرة في أماكن غيرها عديدة: نجدها من خلال الإجراءات السياسية، والتعليم المدرسي، ووسائل الإعلام، وأخيراً من خلال المؤلفات التاريخية. لقد أحدث الاحتفال الذي أقيم عام ١٩٩٤، بعملية الإنزال التي تمت عام ١٩٤٤ ضجة كبيرة خلّدت العملية في الأذهان؛ ولكن هل كان هناك ضرورة لنقل الحدث إلى المحاكم ليبقى حياً في الذاكرة؟

من ناحية أخرى، ليس من المؤكّد أن مثل هذه القضايا تخدم فعلياً علم التربية التاريخية، أو أنها تعكس صورة واضحة ومعبّرة عن الماضي، فالمحاكم لا تستجيب لهذا الهدف بالقدر الذي تستجيب له المؤلفات المختصة. عندما وافقت المحكمة على استئناف قضية "باربي **Barbie**" ضد أفعاله في قمع أعمال المقاومة، فإنها لم تتسبب بتحريف الحقوق التي تميّز بين جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية؛ بالإضافة إلى أنها لم تقدّم أية خدمة للتاريخ. كان "باربي" يعذّب أفراد المقاومة، هذا واقع، ولكن هؤلاء بدورهم، كانوا يستطيعون التعامل بالمثل مع ضباط المخابرات الألمانية فيما لو وقعوا في أسرهم. ونذكر هنا أن الجيش الفرنسي لم يتوانَ عن ممارسة أشكال التنكيل نفسها في حربه ضد الجزائر عام ١٩٤٤ . ولم يمثل أحد منهم للمحاكمة بتهمة جرائم ضد الإنسانية. على كل حال، عندما نقرر إقامة دعوى من

هذا النوع ضد شرطي ألماني، فإننا نساعد على إخفاء تورّط الفرنسيين في السياسة النازية، في الوقت الذي برزت فيه الميليشيا الفرنسية، حسب إفادة عدد كبير من الشهود، أكثر بشاعة وفظاعة من الألمان أنفسهم.

وأخيراً إن المعنى التاريخي لهذه الأفعال جاء مشوشاً بسبب وجود بعض الشهود العيان، أمثال "ماري كلود فايان كوتوريه **Marie-Claude Vaillant-Couturier**"، سجينة سابقة تنقلت بين معتقلي أوشويتز ورافنسبروك، بيد أن تميّزها جاء من صراعها ضد الاعترافات حول (الغولاغ). وفي قضية "توفييه **Touvier**"كان لوجود المحامي "نوردمان **Nordmann**" من بين محاميي الأطراف المدنية، الأثر نفسه، حيث جاءت شهرة رجل القانون هذا، الملتزم بالدفاع عن حقوق الأطراف المدنية لسنوات طويلة، من خلال تصرفه الذي تميّز بالعدوانية خلال قضية "كرافتشينكو و"روسيه **Rousset**" في عامي ١٩٤٨ و ١٩٤٩، عندما تعلّق الأمر بإنكار وجود معسكرات الاعتقال داخل الاتحاد السوفييتي. فهل يعقل إدانة تلك المعسكرات هنا والدفاع عنها في قضية أخرى؟ هل هذه هي مهمة "الذاكرة"؟ لا ننكر أنه في محكمة (نوريمبيرج **Nuremberg**)، شارك ممثلو ستالين في محاكمة معاوني هتلر، اتسم الموقف بالفحش، حيث إن الجرائم التي ارتكبها الفريقان أكثر كراهة وبغضاً من بعضها.

أما القضية الفرنسية الثالثة التي تناولت الجرائم المنفّذة ضد الإنسانية، فقد كان مقرها في محاكم مدينة (بوردو **Bordeaux**) بين شهري تشرين الأول من عام ١٩٩٧ ونيسان من عام ١٩٩٨؛ إنها القضية الأخيرة المتعلقة بأحداث الحرب العالمية الثانية. ظهرت الشكوى الأولى ضد "موريس بابون **Maurice Papon**"، الأمين العام لمحافظة تلك المدينة، في عام ١٩٨١ . كان فحواها استنكار أهل المدينة لمشاركته في عملية اعتقال اليهود ونفيهم. لقد كان هذا الأمين العام استثنائياً من حيث فترة خدمته (حيث إنه أمضى سبعة عشر عاماً في التعلّم، وستة أشهر في الاستماع!)، ومن حيث الاهتمام الذي أثاره لدى الأوساط الإعلامية، كانت الصحف اليومية تخصص له عدة صفحات بشكلٍ يومي؛ أما عدد البرامج التلفزيونية التي كانت تبث

أخباره فقد تضاعف، وانتشرت عشرات الكتب التي تحكي عنه في واجهات المكتبات. فما هي الفائدة التي جنيناها من هذه القضية؟

إنني كمراقب حيادي بعيد عن هذه الأحداث، لا أملك إلاّ القليل لأتحدث عنها من الناحية القانونية، فأنا لم أطّلع على الملف الضخم (المؤلف من ستة آلاف وثلاث مئة ملف، فيما عدا الملفات التي لم يُذكر شيء عنها...). فإذا كان "بابون **Papon**" قد ارتكب خطأً أخلاقياً بعدم انفصاله عن سياسة الدولة الفرنسية تحت إمرة "بيتان **Pétain**"، وبعدم التعبير عن تعاطفه لضحاياه، فهذا الأمر لا يحتمل النقاش. ولكن أن يصل الأمر للتحدّث عن "واجب التمرّد" فهناك خطوة واحدة لا يجتازها سوى الذين يتقنون لعب دور البطولة دون تخاذل إثر إزاحة الخطر. ولكن وفي كل الأحوال، فالأخلاق لا تنتمي للعدالة و نتساءل هل هناك جريمة قانونية؟ إن الجواب عن هذا السؤال منوط بعاملين: أهمية مسؤوليات "بابون" من جهة، ورأيه بمصير المبعَدين من جهة أخرى. وأصدرت المحكمة بشأنه قرارها النهائي بالحكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات بتهمة التواطؤ في عمليات الاعتقال التعسفي، والتوقيف الاستبدادي (فقد تمّ استبعاد فكرة القتل المتعمد)، كل ذلك يعكس صعوبة في تقييم تلك العوامل؛ إنه قرار معتدل بين العقوبة القصوى التي اعتقدنا أنها تناسب طبيعة الجرم، و بين التبرئة.

لم نكن لنتكلم مطولاً عن "بابون" لو كان الموضوع يتعلّق بإدانة فرد واحد. إن الاهتمام الذي لقيه "بابون" يعود للاعتقاد السائد أن تجربته قد تفيد في تربية شعب برمته، وبشكل خاص الأجيال الشابة منه. كان من المفروض أن تتعلّم هذه الأجيال من خلال قصة "بابون" أن سياسة "فيشي" المناهضة لليهود قد ساهمت في الوصول إلى "الحل النهائي" النازي؛ يضاف إلى ذلك أن هذا الموظف البسيط، الذي سيطرت عليه طموحاته الخاصة، كان يستطيع المشاركة في جريمة ضد البشرية. فهل نستطيع الادّعاء أن هذه القضية قد حققت أهدافها التربوية؟

فالكمين الأول الذي كان عليه اجتنابه هو المحاكمة بالمثل، لقد حُكم على "فيشي"، بل وحتى على (أوشويتز) من خلال "بابون" نفسه. لهذا السبب كان لا بد من ملاحقة كل أولئك الذين تسلموا مسؤوليات مماثلة أو أعظم منها في فرنسا. ولكن

لم يحصل شيء من هذا القبيل؛ لقد شاعت الأخبار في البلاد مسبقاً، أنه ستكون هناك قضية خاصة بالجستابو، ويمثلها "باربي"، وقضية أخرى للميليشيا الممثلة بـ"(توفييه"، وثالثة خاصة بالإدارة لإدانة "بوسكيه"، أو إذا تعذّر الوصول إليه، حينئذٍ يمثل "بابون" أمام القضاء. وشهدت البلاد عشية النطق بالحكم، تخوّف البعض من تبرئة المتهم، فأخذوا يحذرون الرأي العام من مغبة هذا الوضع، فقالوا: "إن تبرئة "بابون" تعني الإفراج عن "فيشي"! ولكن ألا نستشف من هنا وجود اعتراف صريح بمحاكمة النظام بدلاً من الإنسان؟

وهناك مبادئ قانونية أخرى لم تنجُ من المحنة. فماذا نقول حول اللمسات الأخيرة التي أوجدتها المحاكم القضائية العليا في فرنسا لتغيير مفهوم الجريمة المقترفة ضد الإنسانية، بهدف تطبيقها على كل من "باربي"، ثم "توفييه"، وأخيراً "بابون"؟ وماذا نقول عن فرضية البراءة التي نسيتها الأطراف المدنية عندما سمح رئيس المحكمة لـ"بابون" بالمثول أمام المحكمة حراً طليقاً؟ وتساءل "بيير نورا **Pierre Nora**" :"ما هي الآثار التربوية التي يمكن أن نتوقعها من قضية قد خسرها المتهم مسبقاً"؟ هل نستطيع التأكيد على أن هيئة المحلفين لم تتعرّض لأي ضغط حين إصدار حكمها، في الوقت الذي أصدرت وسائل الإعلام المحترمة، وسياسيو كافة الأحزاب إدانتهم لـ "بابون" قبل قرار المحكمة بوقت طويل؟ إن الدرس الذي توصّلنا إليه من خلال هذه القضية هو أن الحق يبقى منوطاً بالسياسة في فرنسا.

هل نستطيع الادعاء أن هذه القضية كانت درساً في التاريخ؟ الأمر غاية في الصعوبة. مما لا شك فيه أن هناك عدداً من طلاب المدارس كانوا يسمعون ولأول مرة عن معاناة اليهود تحت الاحتلال. وكما هو معروف أن قاعات المحكمة ليست بالمكان المناسب لظهور الحقيقة التاريخية، إذ إن طبيعتها تختلف تماماً عن طبيعة الحقيقة القانونية. فلهذه الأخيرة وجهان، مذنب/ بريء؛ أسود/ أبيض؛ نعم/ لا؛ في حين أن الأسئلة التي يطرحها التاريخ لا تكتفي بتلك الأجوبة في أغلب الأحيان. ففي الحالة الراهنة، ومن خلال الرؤية المعتدلة والمتباينة لنظام "فيشي"، المنبثقة عن أعمال المؤرخين على طول السنوات الخمس والعشرين الأخيرة، فقد حلّ مكانها،

خلال المحكمة، روايتان ساخرتان (وجاءت بصورة يسهل على الرأي العام الاحتفاظ بها)؛ فالرواية الأولى تمثّل نظام "بيتان" على هئية درع ضد الغازي الألماني يقي الشعب الفرنسي مما هو أسوأ. أما الرواية الثانية فهي تلك التي تشبّهه بالنظام الفاشي، الذي ساهم في إبادة الشعب اليهودي. وجاء الاختلاف بين أهداف كل من العدالة والتاريخ ليكيّف الإجراءات، حيث إن المحكمة رفضت إضافة بعض الوثائق إلى الملف (فهل نتخيّل صدور مثل هذه الحركة عن المؤرّخ؟)؛ أو أنها فرضت أن يكون النقاش شفهياً، كما يمليه القانون، وبالتالي أصبح تدوين الملاحظات محظوراً (فهل نتصور مؤرّخاً محروماً من ممارسة حقه في تدوين المعلومات!).

إن القضايا القانونية، كما هو شائع منذ العصور القديمة، تشبه في شكلها المسرحيات؛ حيث يُطلب من المشهد أن يخاطب عقول المتفرجين. وبقيت القاعدة سارية في أثناء محاكمة "بابون"، فقد طلب محامو الأطراف المدنية وجود ممثلين عن الصحافة، أو استمرار النقاش لضمان وحدة الموضوع، كانوا يطالبون بعرض صور الضحايا من الأطفال على شاشة كبيرة لإثارة عواطف الحاضرين، كذلك كانوا يبحثون عن انقلاب مفاجئ في المواقف من أجل تصعيد التوتر. وهكذا تجري العدالة، ولكن ما هي النقطة المشتركة في البحث عن التأثير في عمل المؤرّخ الذي يتوق إلى الكشف من جهة عن الحقيقة (حتى مع قناعته بأنها تقريبية)، ومن جهة أخرى عن العدالة؟

لقد أثبتت استطلاعات الرأي في مجملها، رضى الفرنسيين عن إقامة الدعوى. ولكن هل نتوقف عند حد هذا المرضي ونستنتج أن الشعب أحرز تقدماً ملموساً في تربيته الوطنية؟ أو أنه علينا أن نشعر بالقلق أمام هذا المد والجزر للاغتباط الذاتي وندرك أن الفرنسيين بإدانتهم لهذا الشخص الذي عاش في عصر آخر، عصر لم يكونوا قد جاؤوا فيه إلى هذه الحياة، معنى ذلك أنهم لا يرون أنفسهم من خلاله؛ لذا فهم ممتنون من ضميرهم المرتاح. حيث إن الأشرار هم دوماً من الطرف الآخر؟ أما فيما يتعلّق بالتربية الوطنية، فإننا غير متأكدين أنها انتهت عندما كنا نقرأ، في تلك الأيام ووفقاً لنتائج استطلاعات غيرها أن ٤٨ ٪ من الفرنسيين يعتبرون أنفسهم (عرقيين) بعض الشيء!

نودّ أن نذكر في هذا السياق واقعة أخرى معاصرة. فأثناء انعقاد جلسات الدعوى التي أقيمت ضد "بابون"، المتهم بجرائم اقترفها ضد البشرية عام ١٩٤٢، عُقدت في الوقت نفسه جلسات في المحكمة الجزائية الدولية (TPI)، خصصت لجرائم الإبادة الجماعية التي شهدتها راوندا قبل ثلاثة أعوام، أي في عام ١٩٩٤. إلاّ أن وزير الدفاع الفرنسي قد نهى الضباط في بلده عن تلبية الاستدعاءات التي تمّ توجيهها إليهم للمثول أمام المحكمة كشهود عيان، وكان يبرر موقفه هذا بأنها "محكمة علنية". ومنذ ذلك الحين تبدّل موقف الحكومة الفرنسية، ولكن كان لهذا الحظر مغزاه. والعبرة في هذا، هي متابعتنا للجرائم التي تُرتكب ضد البشرية مع اشتراطنا أن يكون قد مضى عليها خمسون عاماً، وأن تكون كل الصلات بيننا وبين أولئك المذنبين مبتورة بشكل تام. وعلى كلٍ، فقد اتخذت هيئة الأمم المتحدة (ONU) موقفاً مماثلاً، حين تدخّل أمينها العام السيد "كوفي عنان **Kofi Annan**" لدى مجلس الشيوخ البلجيكي لمنع الاستماع إلى الجنرال "داليـر **Dallaire**"، المسؤول عن القوة الدولية في راوندا أثناء وقوع الأحداث على أرضها. فالكل معترف بتلك الجرائم، ولكن الأهم هو عدم تأثيرها على الحكومات كي لا تغيّر من اتجاه سياستها إزاء الأحداث. وأخيراً نذكّر أن الولايات المتحدة الأمريكية ترفض اليوم التوقيع على الاتفاقيات المتعلّقة بإقامة العدالة على مستوى دول العالم أجمع للسبب نفسه – إلاّ إذا ضمنت عدم مثول أي مواطن أمريكي أمام محاكمها!!

لدى إمعاننا النظر في هذا الفشل التربوي "فهذه القضية برأيي، لا تنطوي على أي معنى تربوي"، بهذه الكلمات اختتم "هنري روسو[13]" ملاحظاته، اتضح فشلنا في عدم قدرتنا على الاستفادة من عبر الماضي، فهل ينتهي بنا القول إلى أن النسيان هو أفضل الحلول؟ بالتأكيد لا. ولكن يُفضّل تسليم الأمور إلى أصحابها المختصين. فمثلاً نوكل مهمة ترتيب الوقائع وإعطائها تفسيراً مبدئياً للمؤرّخين؛ وأمور التربية إلى المؤسسات التي شيدت لها، كالمدارس، ووسائل الإعلام العامة، ومجلس الشعب؛ أما العدالة فواجبها ينحصر في إظهار الحق وتطبيقه على الناس. "إننا نسيء معاملة المغتربين، ولحسن الحظ أن محاكمة (بابون) تتم اليوم من أجل إعادة صورة فرنسا

إلى ما كانت عليه"، قال ذلك أحد رجال الصحافة في أثناء القضية. يمكننا أن نتساءل على العكس، فيما إذا كانت بطولاتنا السابقة تعفينا من مقاومة الظلم الذي يشهده العالم اليوم والذي قد يكون لنا ضلعٌ فيه، بدلاً من اللجوء إلى التعويض عنه.

أود أن أثير هنا في هذا السياق، مفهوم عدم القابلية للتقادم، والذي أصبح موضوع العصر، حيث إنه يرد في كل القضايا التي تحاكم المسؤولين عن الجرائم الجماعية التي ترتكب ضد البشرية. وإذا عدنا إلى الدعوى الفرنسية الأخيرة، فقد تمت إدانة "بابون " عام ١٩٨٨ على جرائم اقترفها عام ١٩٤٢، أي قبل ستة وخمسين عاماً. وبالنسبة لنا، يصعب علينا تصوّر استمرار هذا المبدأ، أي أن يُشْرَع مثلاً بمحاكمة المسؤولين عن الجرائم في راوندا في عام ٢٠٥٠ ولكن المشكلة لا تنحصر بالتخيّل فقط.

يأتي الاعتراض الأول على عدم القبول بفكرة قابلية التقادم، من الصعوبات التي تثيرها في تنفيذ مجرى العدالة. حيث تقوم أية دعوى على أساس شهادات الشهود والوثائق. ولكن ما قيمة الشهادة حين تأتي بعد خمسين عاماً من الوقائع نفسها، بعد أن تأثرت روايات الشهود أنفسهم بانطباعاتهم الشخصية، وبعد أن اطلعوا عليها أقاربهم ؟ ذلك هو أحد الأسباب الذي أدّى إلى إصدار حكم التبرئة في قضية "ديمجانجوك **Demjanjuk**" في إسرائيل. فلقد ساد الاعتقاد أن هذا الشخص هو "إيفان الرهيب **Ivan le Terrible**" نفسه، أكثر الجلادين شراسة في معسكر (تريبلينكا)؛ ولكن أثبتت الدعوى أن هناك خطأً حول الشخصية، فالمتهم ليس هو المعني، وبذلك ظهر ضعف الشهادة التي جاءت متأخرة. حتى إن الوثائق المدونة نفسها تتطلّب، من أجل اعتمادها، أن تكون ملائمة للسياق. فهل نفترض أن هذه الوثائق قد تم الأخذ بها من قبل هيئة المحلفين في المحكمة الذين ربما يكونون أحفاداً لـ "بابون"ولم يتم اختيارهم على مزاياهم كمؤرخين؟ إننا نتوخى الحذر، ونتخذ كافة الاحتياطات الممكنة بهدف إشاعة الحقيقة عندما يقترن الموضوع بمقتل إنسان؛ فهل نغض البصر عند ارتفاع عدد الضحايا إلى الآلاف، أو حتى الملايين؟

وهناك أسباب أخرى تضطرنا لدحض الفكرة القانونية في عدم قبول فكرة قابلية التقادم. إننا عندما نحاكم فرداً ما على جرائم ارتكبها قبل خمسين عاماً،

فذلك يعني أننا نسلّم بأنه بقي على حاله، إذاً فنحن نرفض عملية توضّع بصمات الزمن عليه. ولكن هذا الافتراض يتناقض في آن واحد مع ما تعلمناه في علم الأحياء وفي علم النفس (أي الحس السليم) من جهة، ومع مبادئ الفلسفة الإنسانية التي تشكّل أساساً للدول العلمانية الحديثة من جهة ثانية. قال "روسو **Rousseau**" فيما مضى، إن الإنسان قابل للإصلاح، ومن هنا تأتي خصوصيته. يمكن أن يطرأ عليه التغيير، وهذا ما يجعله، بخلاف الحيوانات، مسؤولاً عن كيانه. هذا لا ينطبق على كل الناس؛ ولكن إذا رفضنا مسبقاً هذه الإمكانية، فإننا ننكر انتماء بعض الأفراد للجنس البشري - وهذا بحد ذاته، أكبر الجرائم بحق الإنسانية... لهذ السبب، فإننا نعتبر حكم الإعدام عملاً همجياً، فهو يحرم بعض الأفراد من قابليتهم للتحوّل، ويستثنيهم من حقوقهم كبشر، قبل أن يسلبهم حقهم في الحياة.

يتمثّل مفهوم عدم قابلية التقادم، في العالم القانوني، على أنه استثناء: فكل الجرائم تسقط بمرور الزمن، باستثناء تلك التي تمس الإنسانية. إلاّ أن الجرائم لا تتشابه. يقال أحياناً في الجرائم التي اقترفت ضد البشرية، إنه يتم قتل الأفراد ليس بسبب ما اقترفوه ولكن بسبب هويتهم. كما لاحظ ذلك "بول ريكور **Paul Ricoeur**" حين قال: منذ أن انتشرت الحروب، باتت الإبادة الجماعية للشعوب المدنية - التي لم تبادر بأي عمل عدواني- عملةً متداولة. فما هو ذنب سكان (طوكيو) أو (هيروشيما) أو (ناغازاكي) الذين أبيدوا إثر إلقاء القنابل عام ١٩٤٥على مدنهم؟ لقد تمت تصفيتهم بسبب هويتهم اليابانية. ولكن ما الفائدة الآن، وقد أُسقطت جرائم الحرب بالتقادم! نحن حين نستثني الجرائم التي ارتكبت ضد الإنسانية، فإن ذلك يدفعنا إلى فصلها عن سلوكيات البشر الأخرى، وإلى جعلها أكثر تعقيداً. فهل يا ترى هذا هو أفضل طريق لمنع تكرارها؟

لهذه الأسباب مجتمعة، لا أعتبر نفسي من أنصار مؤيدي ذلك المفهوم في الترسانة القانونية. إن عدم قابلية التقادم هي الترجمة القانونية لما هو أبديّ؛ ولكن لا مكان للأبديّ في إقامة العدالة الإنسانية. فهذه لا تعترف بالمطلق ولا بالمقدس ولا بالأبديّ، إنها تتعامل مع بشر سيُفنون في يوم من الأيام، بشرٍ غير خالين من العيوب

و غير متشابهين. لهذا فهي تمارس العفو العام وتسقط الجرائم بتقادم الزمن، كما أنها تقطع الدورة الجهنمية للثأر، بإيثار السلام عليه، حتى لو كان هذا السلام ظلماً في قانون العناية الإلهية.

عندما نرفض الإذعان لمفهوم السقوط بالتقادم فهذا لا يعني تخلينا عن الجرائم ضد الإنسانية. إنها تحافظ على هويتها مهما كان شكل القوانين النافذة في البلد الذي ارتكبت فيه؛ فالجرائم التي تقترف ضد البشرية يمكن أن تجتاز الحدود في المكان ولكن ليس عبر الزمان. سأعود لاحقاً لأتناول أشكال العدالة الدولية التي تطبّق في عصرنا الراهن؛ مهما تكن هذه الأشكال فإنها لن تسري إلى الأبد.

obeikandl.com

رومان غاري كما يبدو عام ١٩٤٥،

عندما نشر "التربية الأوروبية"، لدى عودته من فرنسا

obeikandl.com

عصر رومان غاري
Romain Gary

(الطائرات الورقية)، إنها آخر ما نشر للمؤّلف "رومان غاري **Romain Gary**"، نلاحظ أنه بدأ هذه الرواية واختتمها بعبارات يسودها الغموض. حيث نقرأ في الصفحة الأولى إهداءً تحت عنوان:"إلى الذاكرة". أما السطور الأخيرة في الرواية التي كانت أيضاً آخر ما حرره "رومان غاري- في حياته - فقد صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٠، أي العام الذي أقدم فيه على الانتحار - فتقول لنا دون أي ربط مع ما سبقها من أفكار: "إنني أنهي روايتي هذه بذكر أسماء الرعاة مرة أخرى "آندريه تروكميه **André Trocmé**" و"شامبون سور لينيون **Chambon-sur-Lignon**"حيث لا يمكن أن نقول أفضل من ذلك". لقد أكّد "غاري" في رسالة وجهها إلى الصحافة، في لحظاته الأخيرة قبل إقدامه على الانتحار، إن اختياره لموضع هذه الجملة لم يأتِ بمحض الصدفة؛ "ولكن لماذا؟ [...] قد تَكشِف الكلمات الأخيرة لآخر رواياتي الجواب عن هذا السؤال: "حيث لا يمكن أن نقول أفضل من ذلك"."لقد استطعت أخيراً أن أعبّر عن ما كل يجول في داخلي بشكلٍ كامل ". ترى ما هي الرسالة التي أراد "غاري" إبلاغنا إياها من خلال كلماته هذه التي وضعها في أماكن حساسة من كتابه الشهير، والذي يُعتبر أحد روائعه الرومانسية؟

لقد سحر "غاري" عدداً كبيراً من قرائه لدى اطّلاعهم على سيرته الذاتية. ولد في روسيا عام ١٩١٤، وأمضى طفولته بين (موسكو **Moscou**)، و(ويلنو**Wilno**)، و(فارسوفي **Varsovie**)؛ وصل إلى فرنسا عام ١٩٢٨، بصحبة والدته اليهودية غير الملتزمة. ومنذ شهر حزيران من عام ١٩٤٠، انضم إلى جيش فرنسا الحرة في لندن، حيث كان مقاتلاً جوياً طيلة فترة الحرب التي خرج منها حاملاً للقب "رفيق التحرير". مارس الحياة السياسية والأدبية في الحقبة الواقعة ما بين ١٩٤٥ و ١٩٦١؛ وذاعت شهرة مؤلفاته. انغمس بعد هذا التاريخ، بشكل حصري، في مجالات الأدب

والسينما والصحافة. عام ١٩٧٤ بدأت مغامرة "إيميل آجار **Emile Ajar**"، حيث وقّع "غاري" أربعةً من مؤلفاته بهذا الاسم الذي يعني الكثير بالنسبة له، فهو ليس مجرد اسم مستعار، إنه يعتبره إعادة تجسيد - لقد مُنح عن أحد كتبه الذي يحمل عنوان (الحياة لا تزال أمامنا)، الجائزة الثانية (**Goncourt**)، كان كتاباً فريداً من نوعه في تاريخ الأدب الفرنسي، عكس الحياة المضطربة التي عاشتها شخصيته المركبة. لقد أمضى سنوات عمره متنقلاً بين خمسة بلاد. لم تقتصر كتاباته على اللغة الفرنسية فحسب، بل إنه كتب بلغات أخرى كالإنكليزية والروسية والبولونية، وكان يوقّع مؤلفاته بأحد الأسماء المستعارة الأربعة التي اختارها (كان من بينها: رومان غاري)، إنه رجل فذّ، لا يقدر أحد على الإمساك به؛ لقد خُصصت له أربع سير ذاتية، وهذا لم يأتِ جزافاً. يمكن أن نطّلع على زوايا أخرى من شخصيته من خلال شجاعته التي تنعكس في مؤلفاته الأدبية، ومن خلال الأسهم النارية التي تصدر عن أسلوب "إيميل آجار" الخطابي، وتنويعه للأسلوب الروائي، ونظريته عن الرواية التي يجب أن تكون "كاملة". إني أحاول، شخصياً، أن أبحث عن إيضاحات للصيغ الغامضة التي أوردها في رائعته الأدبية (الطائرات الورقية) من خلال طريقة تفكير "رومان غاري" الذي لم يكتب أبحاثاً فلسفية، ولا رسائل هجائية، بل قصصاً وروايات عن سيرته الذاتية.

لم تطرأ على طريقة تفكير "رومان غاري" تغييرات جديرة بالذكر خلال مسيرته الأدبية التي امتدت على طول خمسة وثلاثين عاماً. لقد تمكّن من توضيح بشكل مبسّط وكامل، ما نوّه عنه في كتابه الأول (التربية الأوروبية) الذي صدر باللغة الإنكليزية عام ١٩٤٥، ثم ما لبث أن تُرجم إلى الفرنسية. ما يلفت نظرنا في روايته الأولى تلك، أمورٌ عديدة أولاً أن كتابتها استغرقت ثلاثة أعوام من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٣، وقد كتبها عندما كان محارباً ناشطاً، ومع ذلك، لم يروِ فيها تجربته الشخصية، إنما كان يصف فيها حياة جماعة من الأنصار البولونيين المتوارين عن الأنظار في الغابات، في ضاحية مدينة (ويلنو)، وقد أنهك قواهم الجوع والبرد. وإذا كنا نذكر أنه في الأيام التي لا ينكبّ فيها "غاري" على الكتابة، فهذا يعني أنه يشارك في إحدى المعارك؛ وما يثيرنا هنا هو غياب الفكر البطولي في كتاباته، ككرهه للأعداء؛ يبدو أن العدو الحقيقي لـ "غاري" هو هذا الفكر المانوي. لقد صرّح عن ذلك بعد خمسة

وثلاثين عاماً في مؤلفه (الطائرات الورقية) حيث قال لقد طفح بنا الكيل من اللونين الأبيض والأسود. فاللون الرمادي هو وحده الذي يعكس الروح الإنسانية [1]".

لم يحاول "غاري" أن يتجاهل، أو أن يخفف من وطأة الفظائع التي اقترفها النازيون في كتابه (الطائرات الورقية). لقد أورد ممارسات الشنق، والاغتصاب، وأشكال التعذيب، والهمجية في مكانها الطبيعي. ما يرفضه "غاري" هو أن يُتهم الألمان بأنهم لا إنسانيون، أي أنهم مختلفون تماماً "عنا" نحن البشر الطبيعيون. فالألمان ليسوا كلهم نازيين: ها هو (أوغست **Augustus**) العجوز، مصنّع الآلات الموسيقية الخاصة بالأطفال، أو الجندي الشاب الذي يلوذ بالفرار أمام الحلفاء. وحتى أولئك الذين يتصرفون بطريقة همجية، نجد من بينهم من يحافظ على سلوكه الإنساني عندما يعصم نفسه عن خيانة الطبيعة البشرية التي نشترك كلنا فيها. "إنهم ليسوا الألمان فقط. فالشر يتجول في كل مكان، منذ الأزل، إنه يستحوذ على قلوبنا وعقولنا نحن البشر... وعندما يقترب من أحدنا، أو حتى يتسلل إلينا، فإننا نسارع إلى تقليد شخصية الألمان... حتى لو كنا مواطنين بولونيين". "إنه ليس خطؤهم إذا كانوا رجالاً[3]". فلو انحصرت ممارسة الشر بالنازيين، لبدا الأمر أكثر بساطة مما هو عليه الآن. إن الاكتشاف الذي توصّل إليه "غاري" في أثناء فترة الحرب كان دامغاً، إنهم بتصرفهم على النحو الذي يظهر منهم، يكشف لنا النازيون إحدى الوجوه البشرية – التي ما هي في الحقيقة، إلاّ وجوهنا؛ إن قيامنا بقهر هذا الشر المتأصل فينا لهو أصعب من هزيمة النازيين أنفسهم. فالذين يحرزون النصر في الحرب ليسوا سوى منتصرين مزيفين، حين يعتقدون أنهم قد تغلبوا على أواصر الشر، وقد عموا عن جذوره المتأصلة في أعماقهم. لقد أدرك "غاري" مسبقاً أن أولئك الذين يعتقدون أن هذه الحرب العادلة هي وحدها القادرة على نشر السلام والانسجام، واهمون تماماً؛ فهو على يقين بأن الإنسانية يلزمها ليس فقط سنواتٍ عديدة، بل قروناً طويلة، فيما لو وافقت على تغيير سلوكها في يوم من الأيام، بتخلّيها عن الشر.

هذا الاعتراف لا يقود "غاري" أو حتى شخصيات روايته إلى حب السلام، ولا إلى اعتناق مذهب النسبية فيما يتعلّق بالقيم. لقد تجسّد الشر عند الألمان في تلك

الحقبة الزمنية دون غيرها، من خلال النازية، والواجب الأول الذي يترتب علينا كبشر في هذه الدنيا هو القضاء عليه؛ ولكن علينا القيام بالعملية بعيداً عن الأوهام. فأنصار السلام أنفسهم، ليسوا قديسين، لقد أُصيبوا بعدوى الشر الذي يناضلون ضده. إنهم لا يفرّقون بين الجندي الألماني الشاب الذي يفضّل الهرب، والعجوز الذي يصنّع ألعاب الأطفال، فيطلقون الرصاص على كل منهما: هكذا يحتّم عليهم واجبهم. يضاف إلى ذلك، أن النصر على الأعداء لن يعود علينا سوى بخلاص مؤقّت؛ وستتابع البشرية مسيرتها المتّسمة بالشر، وسيتحرك البشر في دوامتهم كأمثال "حبات البطاطا العمياء والحالمة" داخل الأكياس، على غرار أقوام النمل التي تروح وتجيء بلا نَصَبٍ، كلٌ مسؤول عن قشته. "فماذا يفيد إذاً النضال والدعاء، و ماذا نجني من الأمل والإيمان[4]؟".

تلك هي الرسالة الأساسية التي بقي "غاري" محافظاً عليها طيلة حياته، مع إصراره على توضيحها. لنحاول تتبّع فكرته التي تتّضح من خلال الوجوه الثلاثة الرئيسية التي نجدها في كل رواياته والتي تنحصر في البطل والضحية والمجرم.

نعود ونذكّر هنا أن تصرّف "غاري" طيلة فترة الحرب كان ينمّ عن بطولة حقيقية؛ ولكنه امتنع عن استغلال تجاربه العسكريه كمادة لرواياته، وهو يكاد ينوه عنها في سيرته الذاتية التي أصدرها بعنوان (وعد الفجر)، علماً أنه آثر ذكر المواقف الهزلية التي تعرّض لها، بل وحتى المُهينة منها. حادث آخر يحكي فيه جانباً من سيرته الذاتية، لقد طلب إليه ديوان لجنة صحيفة التحرير ما بين عامي ١٩٧٦-١٩٧٧، تأليف كتاب حول الرفاق. وافق "غاري" على ذلك وبدأ العمل، هيأ لهذا الغرض استمارة تضمّنت أسئلة مفصّلة، أرسلها إلى كافة الرفاق؛ حصل على ما يقارب الستمائة إجابة، باشر سلسلة من اللقاءات، والتقي بالناشر. ولكنه ما لبث بعد عام، أن اعترف بهزيمته، وتراجع عن متابعة المشروع، فكتب إلى الناشر الذي سبق أن اتفق معه [5]: "لم أتوصّل إلى إيجاد طريقة - هذا فيما لو كانت موجودة - للخوض في موضوع التضحية وقتال الرفاق". لا بد أنه دوّن الملاحظات التي أثارها هذا العمل في روايته الأخيرة (الطائرات الورقية) - التي عمل منها نسخاً وزعها

على الرفاق- بينما تضمنت روايته (التربية الأوروبية) أحداثاً ترتبط بالمقاومة لا بالحرب. ومرة أخرى لا يظهر المقاومون فيها كأبطال خارقين، إن قضيتهم، بالطبع، عادلة ولكن هذا لا ينتقص من غرورهم و لا من قسوتهم أي شيء؛ فها هو هارب ألماني آخر يُقبِل على الانتحار مكرهاً، بعد أن باءت محاولة اغتياله لهتلر بالفشل.

فلماذا هذا التحفّظ من قبل "غاري" على تصوير الأبطال؟ لا يعود السبب لنفوره من ممارسة مهنة الأدب على حساب آلام ذويه أو مقتلهم "إنهم لم يسقطوا نتيجة إجراء عمليات السحب". لقد ذهب إلى أبعد من ذلك، فالبطل بالنسبة له، هو تجسيد لقيم يعتبرها من "سمات الرجال" كالقوة، والإقدام، وإنكار الذات، والقدرة على التضحية، إنه "جان مولان **Jean Moulin**"، إنه أيضاً "بيير بروسوليت **Pierre Brossolette**"، الشخصيات المقدسة التي اعتمدها الراوي في قصة (المدلل الكبير **Gros-câlin**) .كان "غاري" مستعداً لتقديس الأبطال، ولكنه في الوقت نفسه لم ينسَ الوجه الآخر للميدالية، فهذه القيم نفسها هي التي تغذّي مذهب الآلية، المسؤول الوحيد عن آلام البشرية الأكثر فداحة. ويستنكر "غاري" من يدّعي: "أن آخر ما يحتاج إليه جيل الشباب يتمثّل في حوادث القتل المثالية. فالحض على البطولات هو للمتخاذلين الضعفاء". يطلب من الأبطال أن يُظهروا قوتهم؛ ولكنه يستطرد ويقول "إنني أقف موقفاً عدائياً من الأقوياء [6]". إن مذهب الآلية، والرغبة في الهيمنة على الآخرين، والاستمتاع على حسابهم، كل ذلك يؤدي إلى إشعال لهيب الحرب، وممارسات الإبادة الجماعية، والاضطهاد؛ وكل هذا الجور تعاني منه البشرية و لا تزال منذ آلاف السنين. يبدو الأمر أقل ضرراً، ولكنه لن يكون أفضل عندما يتخذ ملامح رجال السياسة العصريين حيث يتجسّد الأدب التاريخي الأمريكي لـ"جاك لندن" إلى "هيمنغوي**Hemingway**"(١).

أما الأبطال الذين أحرزوا النصر، فإنهم يواجهون خطراً من نوع خاص، ألا وهو اعتقادهم أنهم خرجوا من الحرب التي قادوها ضد الشر دون أدنى خسائر،

(١) المؤلّف الأمريكي الذي اشتُهر بتصوير الطبيعة والأشخاص القريبين منها، حاز على جائزة نوبل عام ١٩٥٤(المترجم).

وأنهم بذلك باتوا يجسدون الخير بكل أبعاده وبشكلٍ نهائي. لقد انتهت الحرب بخسارة النازيين، فهاهم مدانون على مستوى العالم أجمع، لقد بدؤوا يدركون أنهم قادة الشر. أما المنتصرون، فإنهم يوشكون أن يبقوا عمياً عن إدراك الحقائق، فيدفنون الشر في أعماق الآخرين و يتجاهلونه في أنفسهم. قد يخدعهم الضمير الحي لفترة طويلة. ويختم "غاري" في عام ١٩٤٦، قائلاً: "عندما تضع أي حرب أوزارها، فالذي يتم تحريره هو الجهة المهزومة، لا الغالبة". لقد قرر (توليب **Tulipe**) الشخصية الرئيسية في الرواية التي ظهرت فيها تلك العبارة، ذلك اليهودي الهارب من معتقل (بوشنوالد **Buchenwald**) والمختبئ في (هارليم **Harlem**) قرر إنشاء حركة إنسانية هامة، أطلق عليها اسم "صلاة من أجل المنتصرين[7]". وبعد سنوات عديدة، كتب "دافيد روسيه" عن هذه الفكرة في روايته (انفجار المجتمع) التي أصدرها عام ١٩٧٣:" تكمن الفظاعة في الانتصار". وتبدو رواية (التربية الأوروبية) بالنسبة لبعض القرّاء أهزوجة المجد للمقاتلين ضد النازية؛ وتأتي رواية "غاري" الثانية (توليب **Tulipe**) لتنفي هذا الالتباس. لماذا إذاً نصاب بالدهشة عندما نعلم أن الرواية لم تلقَ أية شهرة في عام ١٩٤٦؟

إن الموقف المأساوي الذي يواجه أي بطل أنه يجد نفسه مضطراً لاستخدام أساليب العدو من أجل القضاء على أواصر الشر. ولم ينسَ "غاري" أبداً أنه في إحدى المعارك التي قهر فيها العدو البشع والبليد، قد تسبب في إراقة دماء أناسٍ أبرياء. إنه يذكر جيداً تلك الواقعة، ويسردها في روايته (الزائف) مستخدماً ضمير الغائب بأسلوب ساخر، فيقول: "كان طياراً مقاتلاً، وتسبب بمجازر وحشية ضد السكان المدنيين من فوق، من السماء العالية[8]". وفي رسالة مختصرة حررها قبل انتحاره، يقف مطولاً عند فعلته الشنيعة هذه، قائلاً: "لا بد أن تكون القنابل التي ألقيتها فوق ألمانيا بين عامي ١٩٤٠-١٩٤٤ قد تسببت بمقتل مؤلفٍ نمساويٍ في مهده، مثل "ريلك **Rilke**"، أو ألمانيٍ مثل "غوته **Goethe**" أو شاعرٍ ألماني مثل "هولدرلين **Hölderlin**" !ولو عاد بي الزمن إلى الوراء، لكررت الفظاعة نفسها. لقد حكم علينا هتلر بقتل الآخرين. وهكذا فإن غالبية القضايا التي تنادي بالعدل، لا تتسم أبداً بالبراءة[9]".

وباعتباره من أنصار الضعفاء "إنني من الأقليات بالمنشأ[10]". ينتاب "غاري" شعور عفوي بالتعاطف تجاه ضحاياه. ولكنه يرفض بحزم أن يمثّل دور البطولة (علماً أنه كان بطلاً ذات يوم)، تماماً كما يرفض أن يلتف بلباس الضحية (إذ كان من الممكن أن يكون إحداها، كونه يهودياً من جهة والدته)، يُفترض بنا إذاً تحديد طبيعة هذا التعاطف.

يرفض "غاري" عزل فئة معينة من الضحايا و تفضيلها على غيرها، إذ يبدو الأمر غريباً بالنسبة إليه. لقد أخذ الجنسية اليهودية عن والدته، مع أنها عمدته في الكنيسة. ولكنه لم يطالب باعتبار آلام شعبه على أنها فريدة. في روايته (توليب) يذكر تارة اليهود وتارة أخرى السود، حيث إن كليهما وقعا ضحية الاضطهاد، ولكن كلٌ بشكلٍ مختلف. "أسود أو زنجي"، قد تطلق أيضاً على "اليهودي": وهو تعبيرٌ شامل، يشير إلى تلك الكائنات الدنيا المنحدرة من سلالة القرود!". استلهم الجلادون الاضطهاد الذي مارسوه على شعوب العرق الأسود عن كتيب بعنوان : "آداب السلوك والرسميات للحكماء في هارليم" – وهي مدينة في هولندا؛ أما في الصحراء حيث يتيه الناس، فقد تمّ تعليق يافطة كتب عليها: "ممنوع دخول اليهود"، وإلى جوارها، يافطة أخرى كتب عليها: "أيها الزنوج، اخرجوا من هنا [11]". ويستمر الالتباس في روايات أخرى، فالآنسة (دريفوس **Dreyfus**) في رواية (المدلل الكبير) هي مومس سوداء، أصلها من الغوايانا –في أميركا الجنوبية– (**Guyane**). وفي رواية (الحياة لا تزال أمامنا) صرّح والد (مومو **Momo**) العربي: "سيدتي لقد انتهى عهد الاحتكار اليهودي. هناك أشخاص آخرون غير اليهود ممن يستحقون الاضطهاد[12]". وفي رواية (ستمضي هذه الليلة بهدوء) يصف "غاري" ظروف حياته عندما كان فتىً مراهقاً غريباً في فرنسا:" كنت آنذاك في جنوب فرنسا أُعامَل كما يعامل أي جزائري اليوم[13]"، ويتابع حديثه في المجلد فيتحدث عن نفسه كما يتحدث عن ذلك "الجزائري". لقد تعمد "غاري" أن يكون بطل روايته (الحياة لا تزال أمامنا)، ذلك المراهق العربي ذو الأربعة عشر ربيعاً، وهو عمر "غاري" نفسه عندما قدم إلى فرنسا.

من جهة أخرى، إن الأوقات العصيبة التي يعيشها الضحايا تثير الشفقة وتحّث على المساعدة، غير أن هذه التجربة لم تحصّنهم أبداً من انتحال دور المجرم الشرير

بحق الآخرين. حيث إن الآلام التي عانوا منها عندما كانوا ضحايا، لم تمنحهم الفضيلة الكافية على المدى البعيد. يورد "غاري" أمثلة كثيرة ومتنوعة في مؤلفاته تتحدث عن تبادل الأدوار بين الجلاد والضحية. شهدنا ولادة الفرع "الصهيوني" للحركة التي أسسها (توليب) في الرواية التي تحمل اسمه، هذه الحركة أُنشأت تحت اسم (صلاة من أجل المنتصرين)، ولكن هذه الحركة ما لبثت أن شوّهت معناها وحرفت مفهومها، فالمقصود هنا هو "فتح باب الهجرة على مصراعيه ودون قيود، أمام أبناء القارة الإفريقية ليعودوا إليها "، وهذا ما سيحول دون "أية محاولة جديدة للقضاء على العرق الأسود بالاستيعاب التدريجي لهم على هذه الأراضي"؛ وتم تنظيم جيش عصري في هذه البقعة من العالم "يُلزَم فيه كل ضابط بإثبات أنه لا يحمل في عروقه أية قطرة دم من العرق الآري".

إن التمييز العنصري ليس ملكاً لأية مجموعة بشرية. وفي إحدى صفحات رواية (توليب) نقرأ عناوين وردت في صحيفة أمريكية، تسأل: "هل يُعتبر اليابانيون من البشر؟" وفي الصفحة نفسها وبعد عدة أسطر نقرأ تصريحاً لـ (هاري ترومان **Harry Truman**) يقول فيه: "سيتم اجتثاث التمييز العنصري في كل من ألمانيا واليابان". وفي أسفل هذه الصفحة يقول هاري: "أسفرت الفتنة التي قامت في ديترويت **Detroit** عن مصرع عدد من الأشخاص".أما الرسالة التي حررتها شابة من (سان لويس **Saint Louis65**،) بسبب عدم تمكنها من الزواج من حبيبها (بيلي رابينوفيتش **Billy Rabin-oviych**)، حيث جاءت مؤثرة جداً، إذ تقول فيها: " إنه يرغب بالزواج مني، ولكن والديه لم يباركا هذا الزواج، لأن الدم الأسود يجري في عروقي. إنني أنحدر من عائلة كريمة، قُتل أخي في المحيط الهادئ على يد كلاب من العرق الأصفر. علماً أننا خضنا هذه الحرب للتخلّص من التمييز العنصري[14]". لقد اختتم "غاري" بهذه الفكرة، وكان قد انقضى عشرون عاماً عليها: " إنه لأمر يدعو للحزن والأسى أن يحلم اليهود بإنشاء شرطة سرية يهودية (على غرار الجستابو)، وأن يحلم السود بإنشاء منظمة سياسية ودينية (**Ku Klux Klan**)، كالتي أُسست في أمريكا الشمالية عام ١٨٦٦ والتي كان هدفها القضاء على السود [15]...". وهناك أمر آخر صرّح به

"غاري" خلال أحد الاجتماعات: "سأعلمكم بأمر رهيب. لا يكفي أن تكون يهودياً أو زنجياً لدحض أذى الألمان والنازيين عنك[16]".

في روايته (الكلب الأبيض)، قام "غاري" بتحليل دقيق لموضوع السود الذين كانوا ضحايا البيض في الماضي، وهم الآن لا يتورعون عن تقليدهم ما إن تسنح لهم الفرصة بذلك. هذه الرواية تشكل الجزء الثاني لسيرة "غاري" الذاتية بعد الجزء الأول الذي صدر بعنوان (وعد الفجر). يحكي الراوي قصة الكلب الضائع الذي التقطه ذات يوم، وسرعان ما اكتشف أنه مدرّب على مهاجمة السود. فيغتاظ، ويقرر وضعه في بيت خاص بالكلاب، حيث يتولّى حارس أسود إعادة تدريبه. وفي نهاية الرواية، يهاجم هذا الكلب السكان البيض حصراً. إنها رواية على شكل فكاهة، يستخدمها "غاري" كشعار ولكن بطابع مأساوي. يحلل هذا الكتاب بشكلٍ جلي وواضح التوترات العرقية التي سادت في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٨، في الفترة التي سبقت حادثة اغتيال مارتن لوثر كينغ(١) ولحقتها، إنه التمييز العرقي للبيض والسود، إنه العنف الأصلي والعنف المشتق عنه، علماً أن عواقب هذا الأخير غير محمودة، حتى لو كانت الوسائل التي في حوزتها قليلة.

يكاد الأمريكون مماثلاً لما هو عليه في دول العالم الثالث، الآخذ بالتحرر من الهيمنة الاستعمارية، والقهر الذي يمارسه كل من الأوروبيين والأمريكيين فيه. حيث يظهر التشابه كبيراً بين (ويتري **Waïtari**) القائد الإفريقي الثائر في رواية (جذور من السماء)، وبين النماذج الأوروبية الأولية: "لم يكن ذلك الأسود مختلفاً كثيراً عن الزعماء الشعبيين الثائرين الذين كانوا يخططون كلمات (الحرية) و(العدالة) و(التقدّم) على ألويتهم، في الوقت الذي كانوا لا يتوانون فيه عن إلقاء الملايين داخل معسكرات الاعتقال، بعد إصدار الحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة، حتى يَلقَوا الموت من جراء العمل المضني [17]". يلمّح الكاتب هنا إلى الشيوعيين، ولكن هذا الكلام يشمل الفئات الأخرى؛ ففي إفريقيا، لم يتمكن العرق الأسود من التستّر على

(١) زعيم الزنوج (المترجم).

محترفي السياسة الذين هم من أصلٍ إفريقي، "من عندنا"، وقد نغتمّ من خطأ العنصريين، للأسف لا ينتمي السود إلى جنسٍ آخر! والأمر يتكرر في أمريكا اللاتينية، حيث ينتشر (آكلو النجوم)، مع أنهم ينحدرون من أصلٍ هندي، يسير هؤلاء الحكام المحليون المستبدون، على منهج المستعمرين الذين طردوهم من بلادهم، بل إنهم يتجاوزونهم في بعض الممارسات- فهم بذلك يخلّدون وجودهم في البلاد. " إننا نرى الجنرالات من العرق الأسود أو من العرق الأصفر داخل مصفحاتهم، أو قصورهم، أو خلف رشاشاتهم، يطبّقون الدرس الذي علمهم إياه أسيادهم، لفترات طويلة. فمن الكونغو إلى فيتنام، كانوا يمارسون الطقوس الأشد ظلمةً التي خلفها أولئك المتحضرون بإتقان، كممارسات الشنق، والتعذيب، والاضطهاد، وكل ذلك تحت لواء الحرية، والتقدم، والإيمان[18]". وعلى كل حال، لم يكونوا بحاجة إلى تلك الدروس، فالبشر أجمعون ينتمون إلى الجنس نفسه. وبارقة الأمل غير موجودة هنا.

وأخيراً، وما إن يزول الخطر، حتى نرى أولئك الضحايا الحقيقيين قد تحولوا في أغلب الأحيان، إلى ضحايا محترفين، أو حماة الوطن المعتمدين، الذين يدينون ببقائهم لآلام من هم حولهم. ويصور "غاري" في روايته (الكلب الأبيض) ممثلي هوليوود وشخصياتها الثرية المشهورة من خلال مشاهد هزلية، وهم يمثلون الكرم، ويزاودون عليه من أجل قضيتهم العادلة، ألا وهي حماية السود! في حين أن دوافعهم الحقيقية مغايرة تماماً لما يظهروه؛ فأعمالهم لا تتجاوز مصالحهم الشخصية. والأمر الأكثر خداعاً، أن هذه المزاودات تمكّنهم من إخفاء اللامبالاة التي تسيطر عليهم تجاه من هم قريبون منهم بالحماس الذي يظهرونه للأشخاص البعيدين عنهم: "يوجد اليوم في العالم فتوى جديدة، تعفيك من مساعدة الأعمى الذي يجتاز الشارع أمامك، بسبب قضية البيافرا، وقضية الفيتنام، والفاقة المنتشرة في دول العالم الثالث، وكافة القضايا الأخرى[19]". إلى جانب هذا، فإن مؤسسي المنظمة الإنسانية المجانية للاستغاثة الـ (س. و. س.)، يجدون الراحة النفسية من خلال الخدمات التي يقدمونها، كما يصورهم من خلال روايته (قلق الملك سليمان). فالضحية بريئة، ولكن الذرائع التي تستخدمها ليست كذلك: "فكل حركات التاريخ الكبرى تشترك من حيث بدايتها ونهايتها في محور واحد، ألا وهو الضحية [20]".

لنعد مجدداً إلى أولئك الجلادين، والعدوانيين والمجرمين. عندما يتحدث "غاري" عنهم، فهو لا يحاول أن يبحث لهم عن أعذار، ولا يوصي بالاستسلام أو بالخضوع للشر، لكنه يعتقد أن أعمالهم تنطوي على دروس وعبر يمكن أن تعود بالفائدة على بقية البشر، فهذه الدروس تكشف حقيقة الإنسان. يبدأ عدو الشر والإجرام (توليب **Tulipe**) بتحرير "مؤلفه الخاص بعلم الأفكار" بعنوان (معركتي) -وليس معسكري- يثبت من خلاله أن كل المصائب التي تلحق بالمجتمعات مصدرها العرق الأبيض؛ لقد كتب:" إن الإجرام الموجود في الفرد الألماني يعود إلى لونه الأبيض"، فالمجرم والضحية، وجهان لعملة واحدة، ألا وهي الفرد، حيث إن كلا الوجهين دفينان في أعماق كل إنسان من هذا العالم. ولكن ها هو صديقه (العم نات **Oncle Nat**)، الزنجي من (هارليم) يصحح له فكرته فيقول: "ينبع الإجرام الموجود في الفرد الألماني، من كونه إنساناً". وينتاب الراوي شك مخيف فيتساءل:"هل إن البشر كلهم من أصل ألماني[21]؟"

أما الشخصية الرئيسية لرواية "غاري" التالية بعنوان (غرفة الملابس الواسعة) فهي (فاندربوت **Vanderputte**)، المعاون التعِس؛ ولدى تأمله للشخصية، يصرّح "غاري" "لقد اكتشفتُ بعد انقضاء الأمر، أن شخصية هذا العجوز تمثل بالنسبة لي الإنسانية كلها[22]". ففي المسرحية التي استلهمها من روايته (غرفة الملابس الواسعة)، والتي أطلق عليها عنوان (النصف الطيب) يقول الجزائري (راتون) لصديقه (لوك): "هل تعرف تعداد شعوب **Chleuhs** (١) في العالم؟ إن عددهم يناهز الثلاثة مليارات[23]". ويأبي ذلك الفتى المراهق (لوك) الذي يبلغ الرابعة عشرة من عمره، ابن أحد مناضلي جيش التحرير القتلى، يأبى أن يكون مختلفاً عن الآخرين، فيطلق النار على صديقه (فاندربوت) قائلاً: " لم يبقَ إلاّ أن أستسلم وأعود إلى التواطؤ الخسيس، والجرم الخفي [24]". فالبراءة الأبدية ليست من حق أحد.

وتعود الفكرة نفسها لتلازم الروايات التالية. حيث نطالع في رواية (جذور من السماء) [25]، " لقد أوحى لنا كل من النازيين وستالين أن حقيقة الإنسان موجودة

(١) **Chleuhs** هو نعت تحقيري أُطلق على الألمان إبان الحرب العالمية الثانية، والمقصود فيه الشعب البربري (المترجم).

لديهم وليست في السهول الخضراء في إيتون **Eton** (وهي مدينة في إنكلترا). وأخيراً إنه الموضوع الأهم الذي قامت عليه رواية (الطائرات الورقية)، يسهل علينا رد ألمانيا إلى جرائمها، وفرنسا إلى أبطالها. " لقد أدركتُ فجأة أن الجلادين كانوا يتخذون من الألمان وحتى من النازيين ستراً لهم ليتواروا خلفه. ولقد راودتني الفكرة منذ زمن بعيد وعلقت في ذهني رافضة الخروج منه، وفشلتُ في طردها هذه الفكرة تقول "إن النازيين يتسمون بالإنسانية". والصفة الإنسانية هذه، الكامنة في أعماقهم ليست سوى لا إنسانيتهم [26]". فطالما أننا لم نعترف بلاإنسانية الإنسان، ولم نعترف بنسبنا إلى الشر، فإننا سنستمر في الكذبة الورعة التي نحن فيها. ولأن "غاري" كان رافضاً الانغماس في تلك الكذبة، فإنه لم يقدر على مبادرة الأعداء بالكره، كما أنه فشل في أن يكون "ذلك الحيوان السياسي".

القضية لا تحتمل المزج بين الجلاد والضحية. فكل تصرّف يستوجب تقييماً خاصاً به. أما الأشخاص الذين يقترفون هذه الأعمال، فإنهم متشابهون. ولا نستطيع أن ندّعي بأننا لم نقترف أي عمل إجرامي مهما كان بسيطاً، ونواسي أنفسنا لهذا. لقد كنا موجودين في أثناء ارتكاب الجرائم، ولكننا لم نبدِ أي استعداد لمنعها. إننا نوصم بالعار انتهاكات الألمان الذين تفرغوا لمزاولة أعمالهم اليومية في أقاصي الأماكن، داخل معسكرات الاعتقال؛ ولكن على طريقتنا، "إننا نقطن في القرية المجاورة، [...] غير آبهين أن ترزح شعوب العالم من حولنا بأكملها في معسكر واحد للموت البطيء[27]". إن للعذاب درجات؛ ولكن هذا لا يمنع أننا كلنا مشتركون بذنب واحد ألا وهو الامتناع عن تقديم يد العون والمساعدة للأشخاص الواقعين تحت نير الخطر [28]".

إن الخير والشر متلازمان في النفس البشرية. ويبدأ "غاري" بنفسه مستغلاً الازدواجية الكامنة فيه، فأمه يهودية، وأبوه من القوزاق (غير معروف): فصاحب المذابح اليهودية وضحيتهم موجودون فيه. ومن هنا نلتقي بالاسم الغريب للشخصية المحورية لكتاب "غاري" الذي يحوي على ركام الجثث بعنوان (رقصة جنكيز خان)، حيث إن هذه الشخصية مؤلّفة من نصفين، الأول من يهود الغيتو (الحي اليهودي) والآخر من المستعمِرين المغول. يمكن أن نجد هذان النصفان أيضاً، في الزوجين:

اليهودي سليمان، ملك الملابس الجاهزة، ومطربة المسرح كورا، المدانَين بسبب تعاونهما مع الألمان، كما في الرواية (قلق الملك سليمان).

إن الذي يرفض رواية البطولة، ورواية الضحية، والذي يرفض الاعتقاد أن الجريمة هي من اختصاص فئة معيّنة من البشر، وأن الخير محصور في فئة أخرى، سيقع بالضرورة فريسة الرواية المأساوية. فلا زالت أصداء المأساة في جميع مؤلفات "غاري" تدوّي في آذاننا. فهو يدرك أن الوجوه الإنسانية العاديّة يشوبها الحقد والازدراء، ويدرك أنه هو أيضاً إنسان عادي؛ هذه المعرفة لا تتبلور في الشعور بالكراهية تجاه العالم أو في الاستسلام، إنما في الغضب. (يتصاعد ذلك الخزي وذلك الغيظ في قلبي لدرجة يفقدانه الحق في تسميته "قلب"، ضدهم، ضدكَ، ضدنا، ضدي أنا شخصياً [29]). غير أن هذا الغضب لا يتبلور دوماً في فعل ما، إذ لا يقدر أي تصرف مهما كان دقيقاً أن يغير من الهوية البشرية. "فلا جواب على الأمور الجوهرية"[30]. كيف إذاً نُبقي على الأمل في داخلنا ونتخلّص من اليأس، بالرغم من كل ما يحيط بنا؟ تصادفنا في بعض الأحيان لحظات وحتى أيام، ينتابنا خلالها العجز عن تحمّل المزيد، ولا بد أن "غاري" قد مرّ ذات يوم بمثل هذه اللحظات، فأغلق شفتيه على فوهة المسدس - علماً أن انتحاره كأي حادث انتحاري آخر، لم يأتِ نتيجة سبب واحد. غير أننا نستشفّ بعض المنطق في تصرفه؛ ألم يكتب في عام ١٩٤٦: "أليس حفاظنا على حياتنا هو التصرف الأكثر دناءة الذي يقوم به كل إنسان فينا؟" فهل نستشف من ذلك أن انتحارنا هو تصرف جدير بالاحترام؟

بيد أن هذا لا يعكس الأفكار الواردة ضمن مؤلفات "رومان غاري" صحيح أنها مأساوية، ولكنها في الوقت ذاته، تشعّ بالفرح والحيوية. لقد أقلع "غاري"عن إطراء الأبطال، وكفّ عن التألم تآزراً مع الضحايا، وعن وصم الأشرار بالعار؛ غير أنه اكتشف وجود أشخاص آخرين مختلفين، وعاش مشاعر أتاحت له التعبير عن حبه للعالم. ومن هنا يبرز "غاري" ويتميّز عن مؤلفين آخرين معاصرين له، اكتفوا بتصوير عبثية العالم، وخبثه، وسواد الطبيعة البشرية. "إننا ننتظر شيئاً آخر غير نهاية العالم

obeikandi.com

للتخلّص من الشجاعة الكامنة في داخلنا"، هذا ما كتبه في (توليب) [31]. كيف تصرّف كي لا يغرق في الحال؟

لقد اكتشفنا عند هذا المؤلّف الرومانسي وعند العديد من شخصيات رواياته، قدرة كبيرة على استيعاب و محبة الأشخاص الأكثر تفاهة أو حتى الأكثر حقارة. تلك هي وصية والد (لوك) في رواية (غرفة الملابس الواسعة)، رفيق جيش التحرير هذا، الذي قتل على يد النازيين: "إن الخطر الأعظم الذي يترصدنا هو في الصعوبة التي نجدها في التعرّف على إنسانية الإنسان، قد تساعدنا الشفقة أحياناً في الكشف عن وجودها من حولنا. إنها تسمو فوق كل التباس، في معزل عن الأخطاء والحقائق، إنها هويتنا الدفينة[32]". فالبشر لا يستحقون أن نبادرهم بالإعجاب، ولكنهم بلا استثناء، بحاجة إلى أن نبادرهم بالحب. لهذا السبب، لا يتوانى "غاري" في الصفحة المشهودة من روايته (وعد الفجر)، عن ذكر اسم ذلك الشخص التافه (السيد بيكيلني **Piekielny**) في كل مرة يلتقي فيها بشخصية مرموقة[33]؛ لنفس السبب أيضاً، نراه يجسّد الإنسانية من خلال الخائن (فاندربوت) ومعاونته (كورا **Cora**). كتب يقول عن روايته (ستمضي هذه الليلة بهدوء): "لقد أودعت فيها تقديري الكامل للضعفاء[34]".

إن شعور البشر بالعزة لا يتأتى من الحب فقط ومن التعاطف الذي يصدر عن الآخرين فيما بينهم (فهذا موجود أيضاً في الدين المسيحي)؛ إنما ينبع من أعماقهم. إذا كان البشر قد جبلوا من طينة واحدة، فهذا لا يعني أنهم متشابهون. إن الخوف، والحماقة، والحقارة، والكبرياء هي من نصيبهم. ولكن هناك المزيد. ففي أعماق كل فرد فيهم طموح قابع، استخدم "غاري" من أجله صوراً تربط ما هو سامٍ بما هو دنيء، كما ورد في روايته (جذور من السماء) أو (الطائرات الورقية)، فكلتاهما تعكس قدرة الإنسان على السمو والترفّع عن الحقارة الدنيوية، بحثاً عن المثل الأعلى، وبعبارة أخرى قدرة الإنسان على مزاولة حريته. لقد أطلق أحد المذاهب الإسلامية على هذه الظاهرة تسمية "جذور من السماء"؛ بينما أطلق عليها الشعب الهندي في المكسيك تسمية "شجرة الحياة" هذه الظاهرة تدفع كلا الطرفين إلى الجثو على الركب وإلى رفع النظر إلى الأعلى، ضاربين صدورهم في لحظات العذاب. [...]

محاولين بهذا التوصل إلى لغة مشتركة تساعدهم على التواصل فيما بينهم، وإقامة العدالة التي يحتاجون إليها، ونشر الحرية، والحب[35] ". فلولا هذا الاندفاع، لما تجاوز الإنسان حدود حيوان بين غيره من الحيوانات". إنك منذ اللحظة التي تنزع فيها الشاعرية والخيال من أعماق الإنسان لن تحصد عندئذٍ إلاّ كتلاً من اللحم الرديء".

غير أن حاجة الإنسان للعدالة والحرية قد تتخذ أشكالاً متنوعة. يتمثّل أحدها في قتال الأبطال، ولا تخفى الخدع التي تستخدم فيه عن "غاري"، فهو لم يتوقف عنه، كما أنه لم يتوقف عن إلقاء القنابل فوق أراضي الأعداء، ولكنه مع ذلك كان يتوق إلى الشكل الآخر للإنسانية، كان يتوق إلى الحب. لا بد أن هذا هو الدافع الذي حثه على ترويج القيم "الأنثوية" المتجسّدة في الأمومة، والمصنّفة في المرتبة الأولى. "فالإنسان – أي الحضارة – يبدأ منذ الطفولة الأولى بالتعرّف على هذه العلاقة من خلال صلته بوالدته"؛ لقد خلّد "غاري" صورة والدته في (وعد الفجر). فحب الطفل لوالدته هو الذي يجعل منه فيما بعد، رجلاً قادراً على مبادرة الآخرين بهذه العاطفة- عندئذٍ فقط يصبح إنساناً. تلك إذاً هي القيم "الأنثوية": الرقّة، والحنان، والتعاطف، واللين، واحترام الضعفاء- إنها القيم ذاتها التي وقف عندها "فاسيلي غروسمان" محاولاً إبرازها. لقد أولى كلا المؤلفيَن مكانةً مماثلة للأمومة، وهي شعار لأسمى معالم الإنسانية لدى الإنسان.

والدين المسيحي من جهته، نادى بهذه القيم أيضاً -أو بالأحرى، لقد ارتبطت هذه القيم بصورة إنسان ألا وهو السيد المسيح – من هنا ندرك سبب تعلّق "غاري" بالسيد المسيح مع أنه من أنصار مذهب "لا أدري"(١). فالسيد المسيح ليس إلهاً، إنه ليس سوى رجل، ولكنه يعتبره الأول والأسمى في تجسيد هذه القيم. "فالمسيحية، هي الأنوثة، والرحمة؛ هي الرقة، والصفح، والتسامح؛ هي الأمومة، واحترام الضعفاء؛ فالمسيح هو الضعف ذاته". أو في كل الأحوال، تلك كانت الفكرة الأصلية للدين المسيحي قبل أن يصبح ذريعة للخوض في الحروب الصليبية، وللتحقيق التعسفي، ولاضطهاد البدع الدينية، وللمبالغة في الحشمة، ولذبح اليهود. إن السيد المسيح كما

(١) وهو مذهب أولئك الذين ينكرون معرفة كل ما هو ميتافيزيقي أو كل ما هو وراء الطبيعة (المترجم).

يراه "غاري" يعود للفكرة الأولية: " لقد شهد الغرب للمرة الأولى في تاريخه رجلاً يجرؤ على التحدث بلغة الأمومة الحانية [36]". هذا ما يفسّر استحواذ ذكريات الماضي على فكر (توليب) بين الحين والحين، (كان حرياً بالمؤّلف أن يسمي توليب "السيد المسيح" أو "كري Cri"، وهو اسم مشتق من الكلمة البدائية "الصيحة" أو الاستنجاد [37])، كما يفسّر ظهور شخصية (جنكيز خان) في آخر الرواية، مهشّماً بصليب كبير.

هل هناك مكان للحب في زمن الحرب؟ يروي "غاري" أنه حفِظ رسالة من والدته ضمن إطار، كانت قد حررتها له عندما كان في بريطانيا، كانت رسالة الوداع، اختتمتها بنصيحة تقول له فيها (**Sil'nyj I krepkij**)أما الكلمة الأولى فتعني في اللغة الروسية "قوي" وأما الثانية، فقد ترجمها "غاري" نفسه بـ (الصامد) [38]". تكمن قوة الضعفاء في الصمود، وهو شكل من أشكال القتال المفضّل لدى "غاري"؛ كونه ألّف روايتين عن المقاومة ولم يكتب شيئاً عن الحرب، أمر مقصودٌ ولم يأتِ بالصدفة. لقد جعل من المقاومة التي عاشها موضوعاً لروايته (جذور من السماء) ولكن ضمن سياق مختلف. اكتشف "موريل" المقاوم الفرنسي القديم، عندما كان منفياً في أحد المعتقلات، أن الإنسانية تبدأ بالحب – تلك العاطفة التي نشعر بها تجاه عامة الناس، والحيوانات وأيضاً حشرات الجُعَل! لقد جثا "موريل" على ركبتيه، ذات يوم رغم التعب والإرهاق اللذين سيطرا عليه، لكي يساعد الجعل الذي سقط على ظهره، للوقوف على رجليه. مصادفة معبّرة: ففي العام الذي كان "غاري" يكتب فيه روايته (جذور من السماء) أي عام ١٩٥٥، كان "غروسمان" ينهي رواية بعنوان (**Tiergarten**)، أدركت شخصيتها الرئيسة أنه يتوجب عليها احترام كل الكائنات الحية، بما فيها دود الأرض، فأثناء إلقاء القنابل على برلين، كان يلتقط دود الأرض ليبعده عن خطر السحق. أما فيما يتعلّق بـ "موريل" الذي آلى على نفسه لدى خروجه من المعتقل، أن يستمر في احترامه المخلص لكل ما هو حيّ، حتى الكلاب، والفيلة التي شاهدها في إفريقيا في الأيام التالية. فالرواية تحكي قصة "موريل" الذي ناضل من أجل إنقاذ حياة الفيلة- لقد تطلّب منه هذا القتال أن يكون متمرساً في فنون الحرب لا أن يكون قد اعتاد القسوة والتصلّب، بكلمة واحدة أن يبقى "**Krepkij**"، أي مقاوماً ولكنه يعرف الضعف.

هذا أيضاً هو التفسير الذي قدمه "غاري" عن شخصية "شارل ديغول" الذي يكّن له إعجاباً دائماً. فـ "غاري" لا يعتبر "ديغول" بطلاً من فولاذ، ولكنه يراه كإنسان يتحمّل مسؤولية ضعفه. "إن "ديغول" في الأربعينيات هو "ديغول" اليوم، إنه يشبه قليلاً "موريل" والفيلة، ولكن على طريقته الخاصة [39]". فأين نقاط التشابه بينهما؟ إن ما يثير "غاري" في شخصية "ديغول" هو الجانب السخيف، والغريب واليائس؛ ففي عام ١٩٤٠ نزل عسكري مجهول، لا يعرفه أحد، نزل إلى شواطئ لندن مصرحاً بأنه سيمثّل فرنسا من الآن فصاعداً! " كان "ديغول" يمثّل الضعف بعينه، ذلك الضعف الذي عرف أن يقول "لا" للقوة، إنه ذلك الرجل الوحيد في ضعفه المطلق[40]". ما يحبه "غاري" في شخصية "ديغول" الجسور، هو هذا التشابه بينه وبين **Don Quichotte** بطل الرواية الإسبانية الشهيرة من تأليف سيرفانتيس، الذي حارب طواحين الهواء-، إنه ذلك المتمرّد الوطني، الذي ينفّذ الأمر السامي. أو التشابه بينه وبين "سولجينستسين **Soljenitsyne**" في السبعينيات: ذلك العجل الصغير الذي يحاول أن يهز شجرة البلوط الشامخة.

وأخيراً نستطيع أن نسجل في تلك السلسلة، أسماء الرعوي (آندريه تروكميه **André Trocmé**) وزوجته (ماغدا **Magda**) وآخرين من سكان مدينة شامبون على (نهر لينيون **Lignon-Chambon- sur**) كما يصورهم "غاري" في روايته (الطائرات الورقية). لم يشترك هؤلاء الرجال والنساء في القتال في أثناء الحرب، إنما كرّسوا أنفسهم لمهمة مختلفة تماماً، ومتمثلة بإنقاذ حياة اليهود المضطهدين؛ فقد نجحوا في إنقاذ حياة عدة آلاف منهم من براثن الموت. هذا هو العمل الذي يتفوّق على باقي الأعمال، والذي دفع "غاري" لكتابة: "لا يسعنا قول أفضل من ذلك".إنها مقاومة الضعفاء، في دائرة الحب.

توصّل "غاري" في بعض الأحيان إلى التغلّب على اليأس، والسبب في ذلك لا يعود فقط إلى ذلك الجانب اللاإنساني الكامن في الإنسان، بل أيضاً إلى قدرته على إمعان النظر في السماء، وعلى تبادل الحب مع الآخرين، وعلى الصمود عند الشدائد. إلى جانب هذا، وإضافة إلى كل الأسباب والمبررات، يشعر بحبٍ جارف يملأ قلبه حتى يكاد يتسع للعالم بأسره، وبسعادةٍ في الحياة تسيطر على كيانه. إنه،

بمشاعره هذه، يشبه الكثيرين؛ ولكنه، ولمجرّد إدراكه لتلك الأمور، وقدرته على التعبير عنها، فإنه يتميّز عن معاصريه، وبشكل خاص أولئك الذين لا يصورون سوى الوجه المظلم من العالم والجانب الحقير لدى البشر، ولا يتوصلون إلى التخلّص من الألم والشر- بل ويُنهِكون بطريقتهم هذه، من يعيشون حولهم.

يتوجه "غاري" باللائمة لبعض مؤلفي عصره، أولئك المتمرسون في "الأدب المأساوي"، "بسبب تسليطهم أضواء "الوعي" على المعاناة البشرية، حين يرغمون الناس على العدول عن الكمال للتوجّه إلى الشمولية": إننا نغضّ بصرنا أمام التعددية، تلك الصفة الخاصة بالكائنات الحيّة، بهدف إرغامهم على رؤية وجه واحد من تجربتهم. إننا بهذا الأسلوب، "لا نلجأ فقط إلى استخدام الكذب عندما نأسر الشعوب داخل بوتقة آلامها، بل إننا أيضاً نساهم في تفاقم هذه الآلام. ما تغفل عنه هذه الكذبة هي "تلك التجربة الأهم في حياة الفرد، التي تسمح باستمرار الحياة وببناء الحضارات، ألا وهي بهجة الوجود". إننا عندما نفكر بالبشر، حتى أولئك المعدمين منهم، يجب ألا ننسى أن "ومضات الفرح تجتاز حياتهم حتى في أشد الظروف حلكة، وأن هناك لحظات لا تحصى يشعرون فيها بالتحامهم مع الفرح، فرح الوجود [41]".

من هنا نتعرّف على نباهة عقل "غاري" من خلال قدرته على تقدير النواحي الإنسانية الخاصة بكل فرد، حتى عند أولئك الذين لم يرتقوا ببصرهم إلى السماء، و لم يكتشفوا نشوة العقل. لقد استطاع أن يتجاوز مرحلة الإحباط بكشفه واقع البشر؛ أما مؤلفاته التي اتسمت بأسلوبها الفكاهي والمرح فقد جعلتنا نشاركه فرحة الوجود، في الوقت الذي كانت مواضيعها مثيرة للقنوط - بدءاً من (التربية الأوروبية) و(توليب) وصولاً إلى (الحياة لا تزال أمامنا) و(الطائرات الورقية) - إن لمؤلفاته أثراً كبيراً فينا، فهي مفعمة بالحياة، ونجد أنفسنا قد انسقنا مع الشخصيات المضحكة والجذابة. لقد وهب "غاري" لقرّائه الحياة - حتى جاء اليوم الذي لم يعد فيه قادراً على الاستمرار بالعطاء، فقرّر انسحابه من الحياة. من أجل هذا يخطئ من يعلن أن أعمال الشِعر يجب أن تتوقّف بعد (أوشويتز). إننا عندما نستسلم لهذه الفكرة

ننغمس في منطق الشمولية الفقير. فالإنسان الكامل - الإنسان بتجرّد - يحتاج دوماً للقصائد، والموسيقى، وأبيات الشعر، والرواية. "الرواية لم تمت"، قالها "غاري" للكاتب الفرنسي "مالرو **Malraux**"في رسالة الإهداء في كتابه (المدلل الكبير).

ترى من كان يعني "غاري" بإهدائه الذي جاء في آخر مؤلفاته؟ لم يحاول للحظة أن يخيف معاصريه من خلال تعميم إهداءات مؤلفاتهم؛ فالإنسان غير قادر على تذكر كل شيء، أو حتى على نسيان كل شيء، الذكريات الأليمة تلازمنا في الوقت الذي نفضل أن ننساها. وما يدخل السرور إلى نفوسنا هو الذي نحاول جاهدين الاحتفاظ به، لا يوجد فضل في ذلك. وعلى كلٍ، فالماضي لا يجب أن يخفي الحاضر. "إني أكره الأسلوب القديم الذي يناضل بشكل مستمر. فالحياة هي التي تلهمنا أن نبدأ من جديد. إنني لا أجمع شتات نفسي، ولا أحيي الذكرى، ولا أشعل النار التي انطفأت". كما أن "غاري" لا يحب الصور الورعة، حتى لو كان أصحابها من العظماء. "إني أمقت الرفات. وأعتقد أنها نذير شؤم، حتى لو كان أصحابها هم ماركس، أو لينين، أو فرويد، أو شارل ديغول، أو ماو تسي تونغ". ولكن في الوقت نفسه يجب ألا نتخلّص من الماضي، إنه موجود في داخلي، إنه أنا [42]".

يعود "غاري" في (الطائرات الورقية)، مراراً وتكراراً إلى موضوع الذاكرة. السبب الأول أن عائلة الراوي تتمتع بذاكرة مذهلة، "تاريخية" تسمح لـ (لودو) أن يفرّغ نفسه لحسابات ذهنية رهيبة، أو أن يحفظ عن ظهر قلب مؤشر سكك الحديد. غير أن هذه المقدرة الخارقة لم تُذكر في الصفحة الأولى من الرواية. تبقى الذاكرة انتقائية طالما أنها موضع إعجاب وتقدير في هذا الكتاب؛ فمهمتها هي الاحتفاظ بأحداث الماضي التي قد تقود خطانا في الحاضر.

كان والد جد (لودو) يعاني من "قوة ذاكرته التاريخية" : لقد كان يتلو عن ظهر قلب إعلان حقوق الإنسان. إن تمتعه بذاكرة قوية هي المعادل لشعار أستاذ اللغة الفرنسية لـ (لودو)، فقد كان يعتقد: "أنها السبب في وجودنا". أن تتذكر معناه يعني أنك أهلٌ لمثلك الأعلى، حتى لا تفقد شرفك. كان الاحتفاظ بالذاكرة في أثناء الحرب، يعني بالنسبة لـ (لودو) الاشتراك بالصمود. ولم يكن وحيداً في تلك الحقبة،

كان هناك شخص آخر "يعيش على الذاكرة، إنه ديغول في لندن". إخلاص للمثل الأعلى أو إخلاص للإنسان حيث بقيت (ليلى) في ذاكرة (لودو) في كل محن الحرب، وسيبقى على ذكراها، ليس لأنه لا يحب سواها، (فليلى تعرف الكثير من الرجال، ولكنها مع ذلك تبقى مخلصة له)، ولكن لأن بها غير منقوص. إن الإخلاص للبشر وللمبادئ يلتقيان في النهاية، وفي ذلك تبقى (شامبون) مثالاً على ذلك، بما أنه تم إنقاذ حياة أفراد فيها، يقول عنها "غاري": إنها المكان الرمز للإخلاص السامي [43]".

تسمح الذاكرة بإثارة الفضيلتين البشريتين: العدالة والحب؛ لهذا السبب فإنها تستحق مكانة الشرف التي خصها بها "رومان غاري".

obeikandl.com